دور رفاعة الطهطاوي في تخريب الهوية الإسلامية

تأليف الاستاذ
هاني السباعي

مقدمة

إن الحمد لله نح
شرور أنفسنا وس
ومن يضـلل فلا
شريك له وأشهد
ورسوله.

(ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تمــوتن إلا وأنتم مسلمون).
(ياأيها النـاس اتقـوا ربكم الـذي خلقكم من نفس واحـدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثـيراً ونسـاءً. واتقـوا الله الــذي تســاءلون به والأرحــام. إنّ الله كــان عليكم رقيباً).
(ياأيها الذين آمنـوا اتقـوا الله وقولـوا قـولاً سـديداً يصلح لكم أعمـالكم ويغفر لكم ذنـوبكم ومن يطع الله ورسـوله فقد فاز فوزاً عظيما).

لقد تعلمنا ونحن في مراحل التعليم الأولى أن هناك شيخاً أزهريـاً من صـعيد مصر اسـمه رفاعة الطهطـاوي ابتعثه محمد علي باشا حاكم مصر إلى فرنسا ونبغ هذا الأزهـري

وأتقن اللغة الفرنسية واقتبس أنوار العلوم الفرنسية ليرجع إلى مصر عالماً مستنيراً ورائداً من رواد النهضة العلمية الحديثة.

وفي مقرر كتاب القراءة والمطالعة كنا نهيم بهذا الرائد الفذ العملاق الذي لم تزل صورته بعمامته الأزهرية عالقة في ذهني؛ عالم أزهري يسافر إلى فرنسا لبضع سنين يأتي بجذوة من علم أهل باريس ليضيئ الطريق لأمته هذا أمر عجاب وفذ بحق!!

لكن مرت السنون وتغيرت مفاهيم الصبا عن الرجل الفذ وانكشف المخبوء وبان المستور وظهرت حقيقة رائد النهضة المصرية والعربية الحديثة؛ تلكم الحقيقة الغائبة أو المغيبة عمداً حتى وقتنا الحاضر.

ويرجع الفضل إلى الله أولاً في تصحيح هذه المفاهيم عن ما يسمى برواد النهضة المصرية والعربية الحديثة ثم إلى مؤلفات الغيورين من أهل الإسلام الذين كشفوا سوأة أفكار رواد النهضة الحديثة الذين اصطنعوا على أعين الغرب وتربوا على موائدهم؛ فكتابات هؤلاء العلماء والأدباء والمشتغلين بالتاريخ وبتاريخ الأدب ساهموا في كشف الدعاوي الخبيثة المستوردة التي تحملها أدمغة وأقلام هؤلاء الرواد الجدد؛ كشفوا حقيقة دعاوى هؤلاء جميعاً رغم تسترهم بزي الإسلام وحب المعرفة وزعمهم البحث عن الحقيقة!!
وهم أبعد الناس عن تلك الحقيقة إنهم مجرد مرتزقة في مجال الفكر والأدب تعمل بالأجر لحساب الغير!!

هذا الغير الذي لايريد خيراً لأمتنا كما لايريد لها بعثاً ولا نهضة كما يروجون!!

وأذكر من هؤلاء الكتاب الغيورين الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى الذي جند قلمه للدفاع عن الفصحى وخاض معاركه الأدبية تحت راية القرآن.

وأذكر آل شاكر تلكم الأسرة المباركة التي حملت لواء الذب عن العقيدة والسنة النبوية ونذرت نفسها للغة العربية أولهم والدهم الشيخ محمد شاكرالذي شغل منصب قاضي القضاة في السودان وتوفي سنة 1929م.

والمحــدث العلامة أبو الأشــبال القاضي الشــرعي أحمد محمد شاكر الذي توفي سنة 1958م وزبدة هذه الأســرة الكريمة الأديب العلامة أبو فهر الأســتاذ الشــيخ محمــود محمد شاكر الذي توفي أغسطس 1997م الموافق (ربيع الآخر 1418هـ) رحمهم الله جميعاً.

وأذكر أيضــاً أســتاذ الأدب والتــاريخ الــدكتور محمد محمد حسين ذلك الرجل الغيور على دينه الذي ألف وأجاد وأفاد حتى صارت كتبه معلماً لاغـنى لطـالب العلم الـذي يبحث في جذور البلاء الذي أحل بأمتنا في العصر الحديث.

وأرجو ألا أكــون مغاليــاً إن قلت: إن كل من كتب ويكتب عن تـــاريخ الحركية الوطنية والأدبية وحركة التغـــــريب والإستشــراق في العصر الحــديث هم عيــال على كتب ومؤلفـات الـدكتور محمد حسـين ذلك الرجل الـذي كـان يعمل في صـمت ودافع عن حصـوننا المهـددة من داخلها وفند الإتجاهـــات الوطنية والأدبية في العصر الحـــديث ووضـــعهم تحت المجهر وبقلم الناقد البصــــير دحض مزاعمهم وبيّن لحن قولهم وأفكارهم الهدامة.

فجـزاه الله خـيراً لحسن صـنيعه بكتابته القيمة المفيـدة الـتي سـاهمت في تبصـير أجيـال كـانوا قد تربـوا على تقديس أصـنام من صـنع ماكينة إعلامية معادية لهوية أمتنا الإسلامية.

ومما لاشك فيه أن هنـاك لفيفـاً ممن فند ودحض شـبهات هؤلاء المرجفين ممن سـار على نهج آل شـاكر والـرافعي ومحمد حســين فجــزاهم الله خــيراً لأنهم كــانوا بحق منافحين مـدافعين عن عقيـدة الإسـلام وثـوابت الأمة ضد الهجمة الشرسة الـــتي يشــنها من يطلق عليهم رواد النهضة العربية والإسلامية الحديثة!

لا نريد أن ننقص من قدر أحد :

"ونحن حين ندعو إلى إعـادة النظر في تقـويم الرجـال، لا نريد أن ننقص من قــدر أحــد، ولكننا لا نريد أن تقـوم في مجتمعاتنا أصنامٌ جديـدة معبـودة لأنـاس يـزعم الزاعمـون أنهم معصومون من كل خطأ، وأن أعمـالهم كلها حسـنات لا تقبل القـدح والنقـد، حـتى إن المخـدوع بهم والمتعصب لهم والمـروج لآرائهم ليهيج ويمـوج إذا وصف أحـدُ النـاس إمامــاً من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائــه، في الــوقت

الــذي لا يهيجــون فيه ولا يموجــون حين يوصف أصــحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لايقبلــون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون.

فيقبلون أن يوصم سـيف الإسـلام خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نــويرة في حــرب الــردة طمعــاً في زوجتــه، ويرددون ماشاع حول ذلك من أكاذيب. ويقبلـون أن يلّطخ تاريخ ذي النورين عثمان بن عفان بما ألصـقه به ابن سـبأ اليهودي من تُهم.

ويقبلون مايروي الأصبهاني في كتـاب الأغـاني في سُـكَيْنَة بنت ســيد شــباب أهل الجنة الحســين من أخبــار اللهو والمجون. ويردّدون ما يُذاع من أخبار هارون الرشيد الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً ثم أصـبح في أوهـام أبنـاء هـذا الجيل رمزاً للخلاعة والترف، بل كاد يصبح رمزاً للإسراف في طلب الشهوات، وصورة من أبطال (ألف ليلة وليلة).

يقبلون ذلك كله، ثم يرفضون أن يُمَسّ أحـدُ أصـنامهم بما هو أيسر منه.

ويحتمــون بحرية الــرأي في كل ما يخــالفون به اجمــاع المسلمين، ويأبون على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية.

يُخطّئون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين، ويجرّحـونهم بالظنون والأوهام ويثورون لتخطيئ سـادتهم أو تجـريحهم بالحقائق الدامغة" د. محمد محمد حسين

بطاقة تعريف بشخصية الطهطاوي :

مولده ونشأته:
ولد رفاعة رافع الطهطــاوي في 7جمــادي الثانية ســنة 1216هــ الموافق 15 أكتــوبر ســنة 1801م في مدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر.

الطهطاوي في الأزهر:
التحق بالأزهر في سنة 1817م (1232هـ).
تلقى رفاعة العلم عن عديد من شيوخ الأزهر الأعلام: لقد درس صـحيح البخـاري على الشـيخ الفضـالي المتـوفى 1820م (1236هـ).

ودرس جمع الجوامع في الأصـول و مشـارق الأنـوار في الحديث على الشيخ حسن القويسني الذي تـولى مشـيخة الأزهر سنة 1834م (1250هـ) ودرس الحكم لابن عطـاء الله السكندري على الشـيخ البخـاري المتـوفى 1840م (1256هـ) ودرس (مغـنى اللـبيب) و (جمع الجوامـع) على الشـيخ محمد حـبيش المتـوفى 1869م (1269). ودرس (شـرح ابن عقيـل) على الشـيخ الـدمنهوري المتـوفى 1869م (1286هـ). ودرس (الأشموني) على الشيخ أحمد الـدمهوجي الـذي تـولى مشـيخة الأزهر سـنة 1838م (1254هــ)، والمتـوفى 1848م (1264هــ). ودرس على الشـيخ إبـراهيم الـبيجوري الـذي تـولى مشـيخة الأزهر المتوفى 1860م (1277هـ).

أما أهم أسـتاذ تتلمذ على يديه رفاعة الطهطـاوي هو الشـيخ حسن العطـار المولـود 1766م (1180هــ) والمتـوفى 1835م (1251هــ) وقد تـولى الشـيخ العطـار مشيخة الأزهر سنة 1830م (1246هـ).

تلقى تعليمه على أيـدي نخبة من العلمـاء منهم الشـيخان الأمـير والصـبان وتخصص في علم المنطق وكـانت له معارف واسعة في علم الفلك والطب والكيمياء والهندسة والموسيقى وكان شاعراً.

يعـده البعض رائـداً من رواد النهضة العربية الحديثة حيث تتلمذ على يديه جيل من الـرواد كرفاعة الطهطـاوي والأديب واللغوي محمد عياد الطنطاوي هـاجر إلى روسـيا عـام 1840م وتخـرج على يديه عـدد كبـير من المستشـرقين في مدينة بطرسـبرج الـذين تلقـوا علـوم اللغة العربية وآدابها وظل هناك حتى توفي في بطرسبرج سنة 1861م.

أنشأ الشيخ حسن العطار جريدة الوقـائع المصـرية ورأس تحريرها.

كان يتردد على المجمع العلمي الذي أنشأه نـابليون عقب احتلاله لمصر سـنة 1798م وكـانت له علاقة حميمة مع حـاكم مصر محمد على باشا وقد أدى ذلك إلى اتهامه من قبل بعض العلماء إنه مهادن لمحمد علي وكـان يـبرر ذلك أنه يريد مصلحة الأزهر! وكـان لرفاعة الطهطـاوي امتيـاز خاص عند أسـتاذه الشـيخ العطـار إذ كـان يلازمه في غـير

الــدروس ليتلقى عنه علومــاً أخــرى كالتــاريخ والجغرافيا والأدب، وكــــان يشـــترك معه في الإطلاع على الكتب الغربية التي لم تتداولها أيدي علماء الأزهر.

ولاننسى أن الشـــيخ العطـــار هو الـــذي رشح رفاعة الطهطــاوي للســفر إلى بــاريس وزكــاه عند محمد علي باشا. في سنة 1821م تخــرج رفاعة في الجـامع الأزهـر، وكانت سنه واحد وعشرين عامــاً، ثم جلس للتـدريس في نفس الجامع الأزهر لمدة عــامين (1822م - 1824م) ثم انتقل إلى وظيفة واعظ وإمام في خدمة الجيش واســتمر في هذا العمل حتى سنة 1826.

وفي ســنة 1826م قــررت الحكومة المصـرية إيفـاد أكـبر بعثاتها إلى فرنسا وكان الطهطاوي ضمن هذه البعثة رغم أنه لم يكن طالبــاً من طلاب هــذه البعثــة، بل لقد رشـحه الشيخ حسن العطار لكي يقوم لطلابها بالوعظ والإرشــاد، ويــؤمهم في الصــلاة، لكنه لم يكتف بــذلك ونبغ في تعلم الفرنسية وأجادها وتتلمذ على أيدي أنبه علماء فرنسا في ذلك الــوقت فلما رجع إلى مصر صــار علمــاً من الأعلام حـــتى وقتنا الحاضــر. وأهم أســماء بعض طلبة البعــوث العلمية التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا:

(1) رفاعة رافع بك الطهطاوي (أول نــاظر لمدرسة اللغات والألسن).
(2) مصـطفى مختـار بك (أول نـاظر للمعـارف من تلامذة بعثة 1826م.
(3) علي مبـــارك باشا (المهنـــدس والمـــؤرخ المشهور).
(4) يوسف بك حكيكيــــــان (نـــــاظر مدرسة المهندسخانة من سنة 1834م إلى سنة 1838م.
(5) محمد علي باشا الحكيم (طـــبيب وجـــراح مشهور).
(6) مصطفى محرمجي (مهندس قناطر وجسور).
(7) محمد بك السكري (مدرس بمدرسة الطب).
(8) محمد شافعي بك (ناظر المدرسة الطبية)
(9) محمد بيــــومي بك (مــــدرس بمدرسة المهندسخانة).
(10) مظهر بك (مهندس القناطر الخيرية).
(11) محمد شباسي بك (مدرس بمدرسة الطب).
(12) حسين بك الإسكندراني (ناظر البحرية)

(13) لمبـير بك (نـاظر ممدرسة المهندسـخانة من 1838.

لقد بلغ عـدد من أرسـلهم محمد علي باشا إلى أوروبا في زمنه 319 طالباً أنفق عليهم 224 ألف جنيه مصري.

واسـتطاع هـؤلاء التلاميذ أن يكونـوا سـادة المجتمع وأن يسـاهموا بشـكل مباشر وفعـال في تغيـير وجه المجتمع المصــري على كافة الأصــعدة والميــادين الحياتية كما ســاهموا في تغيــير بنية المجتمع العقدية والفكرية هم وتلامذتهم الـذين جـاءوا من بعـدهم تمامـاً كما أراد محمد علي باشا ومستشاروه.

العودة إلى مصر:
في سـنة 1832م (1283هــ) عـاد الطهطـاوي إلى مصر من بعثته وكانت قد سبقته إلى محمد علي تقارير أساتذته في فرنسا تحكي تفوقه وامتيـازه وتعلق عليه الآمـال في مجال الترجمة.

وكانت أولى الوظائف الـتي تولاها بعد عودته من بـاريس، وظيفة مـترجم بمدرسة الطب، فكـان أول مصـري يعين في مثل هذا العمل.

وفي سنة 1833 (1249هـ) انتقل رفاعة الطهطاوي من مدرسة الطب إلى مدرسة الطوبجية (المدفعيـة) بمنطقة (طره) إحدى ضواحي القـاهرة كي يعمل مترجمـاً للعلـوم الهندسية والفنون العسكرية.

وفي سنة 1835 (1251هـ) تم افتتاح أول مدرسة للغات في مصر وكـانت تسـمى أول الأمر (مدرسة الترجمـة) ثم تغير اسمها بعد ذلك إلى (مدرسة الألسن) وهي الآن كلية الألسن التابعة لجامعة عين شــمس بالقــاهرة. ويعتــبر الطهطاوي أول من أنشأ متحفاً للآثار في تاريخ مصر.
ويعتـبر الطهطـاوي أول منشئ لصحيفة أخبـار في الـديار المصرية حيث قام بتغيير شكل جريدة (الوقائع المصـرية) التي صـدر عـددها الأول في سـنة 3 ديسـمبر 1828م أي عنـدما كـان الطهطـاوي في بـاريس لكنه لما عـاد تـولى الإشــراف عليها ســنة 1842م وكــانت تصــدر بــاللغتين العربية والتركية حيث جعل الأخبــار المصــرية المــادة الأساســية بــدلاً من التركيــة، وأول من أحيا المقــال السياسي عبر افتتاحيته في جريدة الوقائع، أصبح للجريدة

في عهـده محـررون من الكتـاب كـان من أبـرزهم أحمد فارس الشدياق، والسيد شهاب الدين.

أهم مؤلفات الطهطاوي:

(1) تخليص الإبريز في تلخيص بـاريز ويسـمى هـذا الكتاب أيضاً (الـديوان النفيس بـإيوان بـاريس) وهو الـذي صور فيه الطهطاوي رحلته إلى باريس وتقدم به إلى لجنة الإمتحان في 19 أكتوبر 1830م.

(2) منـــاهج الألبـــاب المصـــرية في مبـــاهج الآداب العصـــرية... وقد خصصه الطهطـــاوي للكلام عن التمـــدن والعمران ولقد طبع في حياته سنة 1869م (1286هـ).

(3) المرشد الأمين في تربية البنـــــات والبـــــنين.. خصصه الطهطاوي لفكــره في التربية والتعليم وآرائه في الــوطن والوطنيــة، وقد طبع في العـام الـذي تـوفي فيه 1873م (1290هـ) ومطبـوع الآن طباعة حسـنة متـوفرة في الأسواق.

(4) أنوار توفيق الجليل في أخبـار مصر وتوثيق بـني إسماعيل.. وهو الجزء الأول من الموسوعة الـتي كـان قد عـزم الطهطـاوي على تأليفها وفي هـذا الجـزء يتكلم عن تاريخ مصر القديمة حتى الفتح الإسـلامي، وطبع في حيـاة المؤلف سنة 1868م (1285هـ).

وعشـــرات الكتب والأبحـــاث والقصـــائد والمنظومـــات الشـعرية من علـوم شـرعية ولغوية وأشـعار في الوطنية ومدح الولاة وغير ذلك.

أهم المترجمـــــات الـــــتي قـــــام بها الطهطاوي:

(1) ترايخ القدماء المصريين. طبع 1838م.
(2) (تعــريب قــانون التجــارة الفرنسي طبع ســنة 1868م.
(3) تعـريب القـانون المـدني الفرنسـي.. طبع سـنة 1866م.
(4) كتاب قلائد الفلاسفة.. طبع سنة 1836م.
(5) مبادئ الهندسة.. طبع 1854م.
(6) المنطق.. طبع 1838م.
(7) روح الشرائع لمتسكيو.. لم يطبع.

(8) أصـول الحقـوق الطبيعية الـتي تعتبرها الإفـرنج أصلاً لأحكامهم.. لم يطبع.
(9) الدسـتور الفرنسي الي نشـره في كتابه تخليص الإبريز.
(10) كتـــاب جغرافية العموميـــــة.. وهو كتـــاب (ملطـــبرون).. تـــرجم منه رفاعة الطهطـــاوي أربع مجلدات من ثمانية.. وطبع بدون تاريخ.

هـذا بالإضـافة إلى عشـرات الكتب والأبحـاث الـتي كتبها بنفسه أو أشرف عليها ولولا خشية الإطالة لذكرناها.

لقد رضي محمد علي ومعظم أبنائه الــولاة عن الشـيخ رفاعة الطهطاوي فقد بلغت ثروته يـوم وفاته 1600 ألف وستمائة فدان غير العقـارات وهـذه ثروته كما ذكرها علي مبـارك باشا في خططـه: أهـدى له إبـراهيم باشا حديقة نـادرة المثـال في (الخانقـاة). وهي مدينة تبلغ 36 فـداناً.. أهداه محمد علي 250 فداناً بمدينة طهطا.. أهداه الخديو سعيد 200 فدانا.. وأهداه الخـديو إسـماعيل 250 فـداناً.. واشترى الطهطـاوي 900 فـدان.. فبلغ جميع ما في ملكه إلى حين وفاته 1600 فدان، غير ما شـراه من العقـارات العديدة في بلده طهطا وفي القاهرة!!

وفي ســـنة 1873م كـــان الطهطـــاوي قد بلغ الثانية والسبعين من عمره.. ودب في جسده الـوهن.. ثم تـوفي يـوم الثلاثـاء 27 مـايو سـنة 1873م الموافق (غـرة ربيع الثاني 1290هـ).

مدخل لفهم فكر الطهطاوي :

اسـتوقفتني عبـارة ذكرها الشـيخ رفاعة الطهطـاوي في كتابه تخليص الإبريز: "اعلم أنه جاء إلى الفرنسـاوية خـبر وقــوع بلاد الجزائر في أيــديهم قبل حصــول هــذه الفتنة بــزمن يســير، فبمجــرد ما وصل هــذا الخــبر إلى رئيس الـوزراء "بولينـاق" أمر بتسـييب مـدافع الفـرح والسـرور، وصــــار يتماشى في المدينة كأنه يظهر العجب بنفســـه، حيث إن مراده نفذ وانتصرت الفرنساوية في زمن وزراته على بلاد الجزائر، ومما وقع أن المطران الكبير لما ســمع بأخذ الجزائــر، ودخل الملك القــديم الكنيسة يشــكر الله سبحانه وتعالى على ذلـك، جـاء إليه ذلك المطـران ليهنيه على هــذه النصــرة. فمن جملة كلامه مامعنــاه: أنه بحمد الله سبحانه وتعـالى على كـون الملة المسـيحية انتصـرت

نصـــرة عظيمة على الملة الإســـلامية، ولازالت كـــذلك. انتهى.

مع أن الحـرب بين الفرنسـاوية وأهـالي الجزائر إنما هي مجـرد أمـور سياسـية ومشـاحنات تجـارات ومعـاملات ومشـاجرات ومجـادلات، منشـأها التكـبر والتعـاظم! ومن الأمثـال الحكيمة لو كـانت المشـاجرة شـجراً لم تثمر إلا ضـجراً" هكـذا بكل بسـاطة يشـخص لنا الشـيخ رفاعة الطهطاوي سـبب عـدوان فرنسا على الجزائـر!! فقـراءة الأحداث بنفس مـادي واضح في ثنايا كلمـات الطهطـاوي؛ فحـرب فرنسا الصـليبية للجزائر المسـلمة مجـرد أمـور سياسية ومشـاحنات ومعـاملات تجاريـة!! هكـذا حللت لنا قرحة الشـيخ الطهطـاوي أصل الـداء؛ فـأس المعضـلة الفرنسية الجزائرية منشؤها التكبر والتعاظم!! فمن الذي يتكـــبر على من أيها الشـــيخ المبجـــل؟! فرنسا الدولة المعتدية المحاربة لبلد إســـــلامي أم شـــــعب الجزائر الأعزل؟!

والعجيب أن الشيخ رفاعة نقل لنا فرح وسرور الفرنسيين لدرجة أن رئيس حكـومتهم أمر بـإطلاق المـدافع علامة الفـرح والسـرور... لمـاذا؟ لأن الملة المسـيحية انتصـرت على الملة الإسلامية!!

ويزيد الأمر وضوحاً أن الطهطاوي ذكر أن مطران باريس الكبـير كـان يقيم القـداس وشـكر الـرب لانتصـار الملة المسيحية على الملة الإسلامية!! ورغم هذا الوضوح نـرى الشيخ يبعد النجعة! ويرجع الأمر إلى غير مـراد أهلـه. وهنا كـانت خطـورة العلمنة والتفسـير المـادي للأحـداث التاريخية.

ولعل قارئاً يتساءل وما علاقة الحكاية السابقة بالعلمانية؟ أقـول إن الهـدف من هـذه الدراسة هو إماطة اللثـام عن فكر شخصـية يعتبرها اللاديـنيون (العلمـانيون) رائـدة من رواد النهضة العربية والإسـلامية الحديثة ويضـفي هـؤلاء العلمانيون الجدد على هـذه الشخصـية مسـوح القديسـين وهالات التنوير والعقلنة وألقاب كثيرة بغية ارهاب البـاحث وكـأن رواد العلمانية أنبيـاء جـدد!! وحيث إن العلمانية ليست شـعاراً أجـوف أو سفسـطة جدلية محضة بل إنها حقيقة واقعية ضـاربة جـذورها في كافة المنـاحي الحياتية في أمتنا العربية والإسلامية رغم حداثتها نسبياً.

لذلك نسلط الضوء على شخصية الطهطـاوي لكونه رائـداً من رواد العلمانية المستوردة من المنظومة الغربية وذلك من خلال مؤلفاته وآرائه التي كانت اللبنات الأولى لدخول العلمانية في أقطارنا العربية والإسلامية.
والعلمانية ذلك السـرطان الخـبيث نجـده يحاصـرنا علي كافة المسـتويات فهنـاك علمانية حاكمة متسـلطة: وهي أظهر أنـــواع العلمنة ونراها شاخصة في عالمنا العـــربي والإسـلامي سـواء تسـربلت بنظـام يطلق على نفسه أنه جمهوري أو ملكي..إلخ.

وهنـاك علمانية فكريـة: وهي أخطر أنـواع العلمنة إذا أنها تؤصل وتقعد للسلطة الحاكمة ولها منـابر إعلامية وثقافية (إذاعـة، تلفـاز، مجلات، صـحف، دور سـينما، مسـارح، مؤلفـات، مراجـع، منـديات، قنـوات فضـائية..) وهنـاك علمانية اجتماعيـــة: وهي نتيجة التقعيد السـابق وثمرته وهي الـــتي تعـــنى بالســلوك والأخلاق والآداب العامة والخاصة وقد أدت إلى تفسخ الروابط الأسـرية وصـــدع المجتمعـات العربية والإسـلامية الحديثـة.. فالعلمانية قد أحاطت بحياتنا وصارت عقبة كأداء أمام تقـدم المسـلمين وعـودتهم لـدينهم واسـتردادهم حقـوقهم المغتصـبة من شريعة وحكم وأرض وعـرض..إلخ فهـذه العلمانية شـجرة خبيثة يجب اجتثـاث جـذورها كمطلب شـرعي من حيـاة المسلمين ودفنها في مقبرة اللاعودة.

"والعلمانية كلمة اخترعها اللبنـانيون من جـذر (علم) أي الإعتماد على العلم وأن الدين خرافة ولاينسجم مع العلم، إذن يجب أن يفصل بين الدولة وبين الــــدين ومع حرية التـدين لمن شـاء" "العلمانية هي فصل بين مجـالين في حياة الإنسان: مجال الدنيا، وزينتها ومتعها، ومجـال الصـلة الخاصة بين الإنسان وخالقه.

هي: فصل بين ســلطتين غــير متجانســتين: بين دين أو كنيسة... وسلطة زمنية أو دولة.

هي تفرقة بين (طــــاهر) وهو سر الله في الإنســـان... و(نجس) وهو ما يمثل المادة وشرها في حياته.

والكنيسة كســلطة مســيحية تباشر أحــوال الإنســان المسيحي فيما يتصل بعلاقته بربه: تباشره منذ ولادته إلى موته... ومنذ زواجه وانجاب الولـد.. حـتى يظل في رضـاء اللــــه. بينما الدولة والســـلطة الزمنية تباشر شـــؤونه

الإجتماعية في علاقته بـــــالآخرين معه في المجتمـــــع.. وشؤونه الإقتصـادية في الملكية ومنفعة المـال.. وشـؤونه في المعاملات التجارية والزراعية والصناعية.

العلمانية فصل في كتـــاب الحيـــاة الأوربيـــة، عـــنيت به الخصومة بين الكنيسة والسلطة الزمنية، في المجتمعـات الأوربية في محاولة لاســتقلال كل منهمــا، أو في محاولة لمنع الإحتكــاك بينهمــا، بعد الشد والتــوتر في علاقتهمــا، طوال القرون الوسطى وسيادة حكم الكنيسة فيها.

ومفهــوم الــدين: هو ما يغطي حاجة الإنســان، كفــرد في صــــلته بالله داخل مكـــــان العبــــادة، أو في خارجها في الأســرة. ومفهــوم السياســة: هو مايشــتمل ما عــدا ذلك الجـانب في حيـاة الإنسـان. والإنسـان بـذلك له جانبـان: جانب ديني.. وآخر سياســي.. ولأيتكلم في الجـانب الأول، كما لايفصل فيه إلا (رجل دين) - بــــــــالمفهوم الكنسي - بينما لايمارس الجانب الثاني إلا (رجل دولة).

ورجل الـــدين مطـــالب بـــأن لايقحم نفسه في مجـــال السياســة.. ورجل الدولة مطــالب بـأن لايقحم نفسه في مجال الدين، وقد يكون لكل منهما تأثير في مجال الآخــر، ولكن هــذا التـــأثير يبقى في الخفـــاء، ويظل من الوجهة الشكلية غير معترف به من الجانب الآخر. وعلى أية حــال فالعلمانية، كما اتفق على مفهومها رجال الكنيسة والدولة معاً: فصل واضح بين تدخل أية من السلطتين القائمتين ــ سـلطة الكنيسـة، وسـلطة الدولة ــ في مجـال الأخـرى، وشؤونها" وأود أن أؤكد أن لفظة (علماني) لايعني القــائم بــالعلم لامن قــريب ولامن بعيــد! "وإنما يعــني التفكــير المادي الـذي لايـؤمن إلا بالمحسـوس ويسـتبعد المغيبـات تماماً من مجال بحثه، ولايسلم أصلاً بوجودهــا، ولقد ظهر المنهج المــادي في الغــرب كــرد فعل للمنهج الـــروحي المســتمد من المسـيحية والــذي يحط من قيمة المــادة ويعلل الحوادث والأشـياء بالمشـيئة الإلهية وحـدها، وينفي القول بالأسباب" أما الإسلام فهو دين حيـاة، دين ودولــة.. لا يوجد في الإسلام فصل بين السـلطتين الدينية والدنيوية كما هو مستقر في المفهوم الكنسي.

نلاحظ أن الذي أوصل الطهطاوي إلى هـذا التأويل الفاسد والفهم الســـــقيم هو انطلاقه من مقدمة مادية فاســـــدة فكــانت النتيجة فاســدة بالتبعية لأنه كـان أسـير التفسـير المــــادي للظـــواهر والأحـــداث التاريخيـــة. هكـــذا بشر

الطهطاوي الأمة الإسلامية بـدين الغـرب الجديد وبقـوانين الغـرب وأخلاقهم!! ونتيجة خلطة الطهطـاوي لأهل فرنسا وعلمائها وانبهــاره بقــوانينهم وســلوكياتهم، نــراه يتــأثر بالتفسير المادي في قـراءة الأحـداث التاريخيـة، فلاعجب إذن أن ينظر الطهطـاوي إلى اعتـداء فرنسا على الجزائر من منظــور مــادي، فالخلافــات التجارية والمشــاحنات المالية مع التكبر والتعـاظم هو سـبب الإعتـداء!! وتغاضى الطهطاوي عن الباعث الحقيقي للعدوان الفرنسي وأغفل الجـانب العقـدي وأسـقط من قاموسه التحليلي الحـرب المقدسة أو الجهاد في سبيل الله.

ومن ثم تواصى العلمـــانيون الجـــدد بنهج روادهم الأوائل وســاروا على نفس الـدرب المــادي؛ فمراكز الدراســات المنتشـرة في ربـوع البلاد العربية والإسـلامية تسـير على نفس الأنمـــوذج؛ التحليل المـــادي للأحـــداث الجارية في العـــالم الإســـلامي كالجهـــاد في فلســطين والشيشـــان والحركـــات الإســـلامية في العـــالم العـــربي والإســـلامي وخلاصة أبحاثهم التي أنفقوا عليها الأموال الطائلـة، ناهيك عن الوقت والجهد؛ تدندن حول التفسير المادي سواء عن عمد أو شبه عمد؛ فتارة هذا الجهاد نتيجة على حد زعمهم لظــروف اقتصــادية وحالة الفقر وانتشــار البطالة وعــدم تداول السـلطة، وتـارة حالة رد فعل لهزيمة 1967 وتـارة لحب الظهـور هـذا في حالة إذا وجـدوا أن القـائمين على الجهـاد ليسـوا فقـراء أو عـاطلين!! وتحليلات سـاذجة أن وراء هذا الجهاد دولاً أجنبية تمول الشـباب القـائمين على هذا الجهاد بالمال!! وهنـاك تحليلات لا حصر لها تـدور في فلك المنظومة الغربية أو الســـلطوية وتصب في قنـــاة التحليل المادي.

وتصـداقاً لما نقـول عنـدما اجتـاحت القـوات الشـيوعية السوفيتية أفغانستان عام 1979م خـرجت علينا العلمانية العربية الحمـراء! تطل برأسـها وتقـول إن سـبب دخـول القوات الشيوعية اسـتجابة لطلب رئيس دولة أفغانسـتان فـدخل السـوفييت لمسـاعدة دولة صـديقة!! أما العلمانية البيضاء! إن سبب الإحتلال هو الوصول إلى الميـاه الدافئة وتـــأمين حـــدود الإتحـــاد الســـوفياتي من القـــوات الإمريكية..إلخ.

وقس على ذلك مشكلة المسلمين في البوسنة وكوسـوفا وجنـوب السـودان والقوقـاز وكشـمير وبورمـا: مشـاكل عرقية وتـداخلات جيوسياسـية... تحليلات مـاأنزل الله بها

من سلطان!! وضاعت بلاد الإسلام بسبب هـذه التحليلات المادية المتعمـدة وتم تمـييع القضـايا وكـاد أن يختفي من قاموسـنا الشـرعي الجهـاد في سـبيل الله كل ذلك نتيجة هـــذا الســـرطان العلمـــاني الـــذي هيأ المنـــاخ لهـــذه المصطلحات الدخيلة!!

وبعد :

كـانت هـذه تقدمة لإلقـاء الضـوء على فكر ومنهج الشـيخ رفاعة رافع الطهطاوي واضع النطفة الأولى للعلمانية في العــالم العــربي والإســلامي؛ هــذه النطفة الأولى الــتي وضـــعت في رحم أمتنا على حين فرقة من المســـلمين وعلى حين ضعف وغفلة في بلاد الإسـلام، وطفق السـلخ يكبر في رحم الأمة حتى صار تنيناً مخيفـاً يبتلع في جوفه كل القيم بلا استثناء!! من منطلق هـذه التقدمة سـأحاول بتوفيق الله أن أسـتعرض بإيجـاز غـير مخل أهم القضـايا المنهجية في فكر رفاعة الطهطاوي وقد رتبتها على النحو التالي:

الفصل الأول: الحضـــــارة والبـــــداوة في فكر الطهطاوي.
الفصل الثـاني: اللبنـات الأولى للحيـاة البرلمانية والقوانين الوضعية.
الفصل الثالث: دور العقل في التحسين والتقــبيح عند الطهطاوي.
الفصل الرابع: الطهطاوي وإحياء نعرات الجاهلية وإحلال ولاء الوطن محل الدين والعقيدة.

(رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري)
أسأل الله التوفيق والسداد

الفصل الأول
الحضارة، البداوة، التخلف

ماذا تعني هـذه المفـاهيم لـدى الشـيخ رفاعة وما أثر ذلك واقعياً؟ أو بمعـنى آخر هل كـان للمنظومة الغربية أثر في تشــكيل عقلية الطهطــاوي ونظرته إلى هــذه المفــردات (الحضارة/البداوة/التخلف) بمنظــور مــادي وتبنيه التعريف الغربي لهذه المفردات؟

هذا ما سنجيب عنه في هذا الفصل.

يقــول الطهطــاوي في البــاب الثــامن من كتابه (تخليص الإبريز): "وقد كانت الناس في أول الـزمن تعبد الشـمس والقمر والنجــوم، وغــير ذلــك، ثم بالهــام الله تعــالى، وبإرسـاله الرسـل، يعبـدون إلهـاً واحـداً، فكما الـزمن في الصعود رأيت في الصنائع البشرية والعلوم المدنية، وكلما نزلت ونظـرت إلى الـزمن في الهبـوط رأيت في الغـالب ترقيهم وتقدمهم في ذلك، وبهذا الترقي وقيـاس درجاتــه، وحســاب البعد عن عن الحالة الأصــلية والقــرب منهــا، انقسم سائر الخلق إلى عدة مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة الهمل المتوحشين.

المرتبة الثانية: مرتبة البرابرة الخشنين.

المرتبة الثالثـــــــة: مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر المتطرقين".

ثم يذكر الطهطاوي أمثلة لكل مرتبة نختار أمثلة المرتبتين الثانية والثالثة: "ومثال المرتبة الثانية؛ عرب الباديـة، فـإن عندهم نوعاً من الإجتماع الإنساني والإستئناس والإئتلاف، لمعرفتهم الحلال من الحـرام، والقـراءة والكتابـة، وغيرها من أمـور الـدين، ونحو ذلـك، غـير أنهم أيضـاً لم تكتمل عندهم درجة الترقي في أمور المعاش والعمران والصنائع البشـرية والعلـوم العقلية والنقليـة، وإن عرفـوا البنـاء والفلاحة وتربية البهائم ونحو ذلك.

ومثـال المرتبة الثالثـة: بلاد مصر والشـام واليمن والـروم والعجم والإفـرنج والمغـرب وسـنار وبلاد أمريكـة، على أكثرها، وكثير من جزائر البحر المحيـط، فـإن جميع هـؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسات، وعلوم، وشرائع وتجارات، ولهم معـارف كاملة في آلات الصـنائع والحيل على حمل الأشـياء الثقيلة بـأخف الطـرق، ولهم علم بالسـفر في البحور، إلى غير ذلك" نلاحظ تـأثر الطهطـاوي بالمنظومة الغربية فألفـاظ (الحضـارة/البـداوة/التخلـف) مصـطلحات إغريقية المولـد، قد أفرزتها المنظومة الغربية الـتي تنظر إلى المجتمعـات الإنسـانية نظـرة مادية لاتعـترف بـالقيم والأخلاق كمعيار للرقي!

وهنـاك بعض البـاحثين الأوروبـيين لايعـترفون بـذلك بل يصـرون على أن حضـارتهم لها صـلة بـالقيم وبالـدين المسيحي وبتعاليم الإنجيل ويرد على هـذا الـوهم الأسـتاذ محمد قطب: "وأحيانـاً تغالط أوربا نفسـها وتـزعم أن حضـارتها ذات صـلة بالـدين! فتتمحك بالمسـيح، وتسـمي حضارتها (الحضارة المسـيحية) وليس هنـاك ما هو أكـذب من هـذا على الواقع ! فالمسـيح قد دعا للـترفع عن متـاع الأرض من أجل خلاص الـروح، وقـال: (من ضـربك على خـدك الأيمن فـأدر له الأيسـر، ومن أراد أن يأخذ ثوبك فأعطه الـرداء أيضـاً). وما أبعد الواقع الأوربي عن دعـوة المسيح عليه السلام.

فهي لاتـدير خـدها الأيسر لمن ضـربها على خـدها الأيمن، بل هي تضـرب، وتنهب، وتسـلب، وتغتصب برغبة عدوانية خالصة دون أن يمسـها أحـد! إنها ليست وريثة دعـوة المسـيح، إنما هي وريثة الجاهلية الرومانية الـتي تسـعى إلى القوة لتذل الآخرين وتقهرهم، وتسـتعبدهم لمصـالحها الخاصة، والتي تسـعى إلى تـزيين الحيـاة الـدنيا بكل زينة من أجل أن تغـرق في المتـاع! والـذين يقولـون عن الحضـارة الغربية المعاصـرة إنها إغريقية رومانية هم

أصدق بكثير، وأوضح بكثير من الذين يزعمون لها أي صلة بالمسيح عليه السلام.

وكونها إغريقية رومانية في أساسها، هو الـذي رشـحها أن تتقبل التفسير الحيواني للإنسان الـذي ابتدعه دارون، وأن تتبـنى للإنسـان فكـرة صـراع البقـاء الـتي فسـربها دارون حياة الحيوان وسلوكه.

ورشـحها كـذلك أن تفسر المتـاع ذلك التفسـير الحيـواني الـــذي تمارسه في الفوضى الجنســية الــتي تعيشـــها في وسائل إعلامها وفي واقع حياتها" أقول: أوربا رغم انسلاخ حضـــارتها من دعـــوة المســـيح عليه الســـلام إلا أنها تعلن تمسكها بهذه الصـلة إذا شـعرت أن مصـالحها مهـددة من قبل قوة عقائدية تخالف منظومتها فشعار الصــليب يظهر وتعلن التعبئة الإعلامية العامة في مواجهة الإسلام، عدوها الأول في هذه المرحلة.

ومن قبل كانت تحارب المنظومة الغربية الشـيوعية باسم دعـوة المسـيح!! فـأي حضـارة يبشـرنا بها الشـيخ رفاعة الطهطـــــاوي!! فالطهطـــــاوي جعل مرتبة أفضل الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصـحابته الأطهـار أدنى من المرتبة الثالثة أي في مرتبة المتخلفين حضـــــــارياً!! بمعـــنى أوضح مرتبة هتلر وبيتهـــوفن ومـــاري أنطـــوانيت ورزفلت وبـوش وغـيرهم أفضل رقيـاً وحضـارة من مرتبة رسول الله صلى الله عليه وسـلم وبقية الصـحابة الأخيـار طبقـاً للمنظـور الغـربي!! والسـبب في ذلك أن الصـحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم من أجيـــال خيرية لم تكتمل عندهم درجة الـرقي في أمـور المعـاش والعمـران طبقـاً للتقـــويم المـــادي لـــدى الطهطـــاوي!! ومن ثم فالمرتبة الثالثـة: هي الأنمـوذج الأمثـل.. لمـاذا؟ "لأن جميع هـؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسـات، وعلـوم صـنائع، وشـرائع، وتجـارات، ولهم معـارف كاملة في آلات الصـنائع والحيل على حمل الأشـياء الثقيلة أخف الطـرق " بنـاء على هـذه المنطلقـــات والمفـــاهيم المنحرفة ظهـــرت كتب مثل "العظمـــاء مائـــة، أولهم محمد صـــلى الله عليه وســـلم" فالكتاب ظاهره المـدح وباطنه القـدح والإسـاءة لشـخص رســول الله صــلى الله عليه وســلم!! فهل يعقل أن أضع رســـــول الله مع مجموعة من المنحـــــرفين والشـــــواذ والساقطين وسفاكي الدماء وأقول هـؤلاء أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم.. حاشا لمقام رسول الله صلى الله

عليه وسلم أن يدنس ويوضع مع سـفلة القـوم مهما علت منزلتهم في أوطانهم.

كل ذلك بسبب التقويم المادي، والذي دفعهم إلى ذلك هو نظـرتهم إلى شخصـية الرسـول صـلى الله عليه وسـلم المجردة دون النظر إلى الوحي فشخصية الرسول عندهم الرجل المنتصر العبقـري الـذي اكتسح أتباعه العـالم ونشـروا تعاليمـه... دون النظر إلى الـوحي أو إلى أو إلى القيمة الأخلاقية فيسـتوي الرسـول هنا في نظـرهم مع نابليون وروميل جـورج واشـنطن!! ومن ثم ظهـرت حمى المنهج التجريـبي في بداية القـرن المنصـرم في المنطقة العربية والإسلامية.

ونرى ذلك واضحاً في كتاب "حيـاة محمد صـلى الله عليه وسـلم" لهيكل الـذي تكلم عن شخصـية الرسـول القائد العظيم دون النظر إلى الـوحي.. وانخـدع البعض بـبريق الألقـاب فـألف العقـاد عبقرياته الشـهيرة رغم أن العقـاد أحسنهم في الدفاع عن الإسلام وعن قادته الأخيار.

واتسع الخرق على الراقع! وظهـرت كتابـات تطعن رمـزاً وتصريحاً في شخص الرسـول صـلى الله عليه وسـلم بل وفي رب العـزة سـبحانه وتعـالى وملائكته المقـربين مثل كتـاب "أولاد حارتنـا" لنجيب محفـوظ و"آيـات شـيطانية لسلمان رشدي" وكتابات لبعض المغمورين الذين سطروا صحائف سوداء بأقلام حاقدة على الإسـلام وأهله والقائمة طويـــل!! كل ذلك بسـبب هـذه المفـاهيم العلمانية المسـتوردة لتقـويم وتحليل الظـاهرة الإنسـانية من خلال مايسمى بالرقي المادي.

وفي هـذا السـياق يقـول الـدكتور محمد رشـاد رداً على الذين ينبهرون بهذه المفردات الغربية: "إن الإنسياق وراء هذا المفهوم - ونحن ننبه هنا أننا لاننكر الرقي المـادي في إطـار أخلاقي معين، ولانقلل من قيمته ـ يجرنا دون وعي إلى احتقار الجانب الأكـثر قيمة في تاريخنـا، إننا إذا طبقنا هـذا الإصـطلاح بمفهومه المـادي على تاريخنا فسـوف نسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلـق، ونسـلك أصـحابه وهم خـير جيل من البشر في عـداد المتخلفين حضارياً وذلك لأنهم عاشوا حيـاة بسـيطة خالية من التكلف والتعقيد في المأكل والمشـرب والمسـكن وطرائق الحيـاة المختلفـة، مع أننا انطلاقـاً من مفهومنا الخـاص للحضـارة نتخذ من هـذا المظهر دليلاً على سـمو

الرســول صــلى الله عليه وســلم وأصــحابه، وعلى نبلهم وعظيم خلقهم.

إننا بهذا المفهوم لانسـيئ إلى تـاريخ الإسـلام وحـده وإنما نسيئ إلى تاريخ الإنسانية كلها؛ إذ نهدر بذلك قيمة أخلاقية قدرتها وأجلتها الإنسانية عـبر تاريخها وفي جميع عصـورها وفي مختلف أديانهــا، وهي قيمة الزهد في عــرض الــدنيا وأشـــيائها ومتعاها وأدواتها لا عن جهل بهـــا، ولا عن عجز عن استعمالها، ولكن ادراكـاً لقيمتها الحقيقية وهي التغـير والزوال وإيثاراً لما هو أبقى، وهذه أعلى مــراتب الإدراك، والقــدرة على ضــبط النفس، وهي أرقى مــراتب الأخلاق. وإن علينا أن نستعيد ثقتنا في أنفسنا والتي فقـدناها أمـام ضغط الفكر الغربي والحضارة الغربية.

إننا إن فعلنا ذلك تخلصـــنا من أسر المصـــطلحات الـــتي اســتعبدت عقولنا لحســاب الغــرب وحضــارته. وهــذه المصطلحات التي لاتمثل مقياساً إنسانياً شاملاً تقـاس به الأفكـار والمعتقـدات والحضـارات ــ كما يزعمـون ــ وإنما تمثل وجهات نظر خاصة للأفكار والمعتقدات، والحضارات تمثل عقـــول مبتـــدعيها، وقد توافق الحق أو تخالفه فيما يتعلق بالآخرين.

لو ووثقنا في أنفســنا لتحررنــا؛ ولو تحررنا لرأينا الأشــياء على حقائقها، ولعرفنا أنفسنا على حقائقها" وتصداق ذلك ينقل لنا الطهطـــــاوي صــــــورة كاملة لمأكل وملبس الفرنسيس نختار منها: "أحضروا لنا عدة خـدم فرنسـاوية لانعرف لغاتهم، ونحو مئة كرسي للجلوس عليها، لأن هذه البلاد يسـتغربون جلـوس الإنسـان على سـجادة مفروشة على الأرض، فضــلاً عن الجلــوس بــالأرض، ثم الســفرة للفطور، ثم جاءوا بطبليات عالية ثم رصوها من الصــحون البيضاء الشبيهة بالعجمية، وجعلوا قـدام كل صـحن قـدحاً من القزاز وسـكينة وشـوكة وملعقـة، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء وإناء فيه ملح وآخر فيه فلفل، ثم رصوا حـــوالي الطبلية كراسي لكل واحد كــرسي، ثم جـــاءوا بـالطبيخ فوضـعوا في كل طبلية صـحناً كبـيراً أو صـحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميـع، فيعطي لك إنسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسـكينة الـتي قدامــه، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة التي بيده، فلا يأكل الإنسان بيده أصلاً ولا بشوكة غيره أو سكينته أو يشرب من قدحه أبداً، ويزعمــون أن هــذا أنظف وأســلم عاقبــة" ويسترسل الطهطـــاوي في وصف الصـــحون والأطبـــاق وأطنب

الطهطـــاوي في الهيـــام بالشـــوربة الفرنســـية والقهـــوة والشاي والمقبلات والسلاطة!! لكنه نسي أن يذكر لنا هل كان يمسك الشوكة بيده اليمنى أم اليسرى!!

ولايخفى علينا أن هذا الإسهاب في وصف البيت الفرنسي ليس من قبيل التســلية وإضــفاء مســحة التشــويق في الكتابـــة، بل إن الطهطـــاوي نقل أنموذجـــاً غريبـــاً إلى مجتمعاتنا الإسـلامية بحكم أنها شعوب مقهـورة، ومغلوبة على أمرها، والمغلوب يتطلع دائماً إلى من هو أقــوى منه ســـواء في الحكم أو في المأكل والملبس! فالطهطـــاوي نظر إلى الأنمـــوذج الغـــربي على انه أرقى درجة التحضر والتمـــدن وأرقى عقلانية وأوسع معرفـــة! هكـــذا ينظر المهزوم إلى المنتصر! هكـذا ينظر المغلـوب التائه الحـائر إلى القوي المتغلب!

وقد سبر اين خلدون غور هذه الأنفس المنهزمة فشــخص لنا هذه الحالة المتكرة في تاريخ الإنســانية بقلمه الــواعي الراصد لمثل هـذه الظـواهر البشـرية: "المغلـوب دائمـاً مولع بالغـــالب في شـــعاره وزيه ونحلته وســـائر أحواله وعوائده.

والســبب في ذلك أن النفس تعتقد الكمــال في من غلبها وانقــادت إليــه؛ إما لنظــره بالكمــال بما وقر عنــدها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب وتشبهت به.

وذلك هو الإقتداء أو لما تــراه ــ والله أعلم ــ من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولاقوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب.

وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، في أخذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله.

وانظر ذلك في الأبنـاء مع آبـائهم كيف تجـدهم متشـبهين بهم دائماً. وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم.

وانظر إلى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم حتى إنه إذا كـــانت أمة تجـــاور أمة أخـــرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم هذا التشبيه والإقتداء حظ كبير.

تأمل هـذا في سر قـولهم: العامة على دين الملـك! فإنه من بابه. إذ الملك غـالب لمن تحت يـده والرعية مقتـدون به لإعتقاد الكمال فيه".

أقول: الشـيخ رفاعة الطهطـاوي بهرته الحضـارة الغربية المادية ولأنه مهـزوم ومغلـوب اعتقد فيهم الكمـال فنقل لمجتمعاتنا الإسلامية صوراً سياسية واقتصـادية واجتماعية وحياتية لهـــذا المتغلب القـــوي لكي يحتـــذي به عالمنا الإســـلامي وهنا كـــان مكمن الخطـــورة لـــدى التجربة الطهطاوي في باريس فـنراه ينقل لنا كل شئ في فرنسا حتى حفلات الرقص يصفها بالتفصيل بل ويحسنها.

وهذا ما سنتكلم عنه في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

الفصل الثاني
اللبنات الأولى للحياة البرلمانية والقوانين الوضعية

لقد اختمـرت الفكـرة إلعلمانية في عقل الشـيخ الأزهـري رفاعة الطهطاوي بعد أن استقاها من عـدة مصـادر نـذكر منها:

أولاً: اطلاعه على الدســـــتور الفرنسي وترجمته للقوانين الفرنسية.

ثانياً: معاصرته للثورة الفرنسية:

فقد شـهد الطهطـاوي أحـداث ثـورة الشـعب الفرنسي 1830م على الملك شارل العاشر..

حيث عـاش الطهطـاوي أحـداث هـذه الثـورة ونـزل في شـــوارع بـــاريس وســـجل غضب الجمـــاهير وتحركـــاتهم المســـلحة، ووصف انتصـــاراتهم ضد الســـلطة الحاكمـــة، وتكلم عن الســــــلطة الثورية المؤقتة الــــتي أقاموها في الأحياء.

"هذه هي ثورة 1830 التي عاشها رفاعة الطهطاوي يوماً بيوم ومسه منها لهيب أشعل قلبه وأضاء عقله، وعلمه أن الحرية جوهرها مرادف انساني".

وفي هــذا الوصف المثــير صــور رفاعة الطهطــاوي كيف اســتولى الشــعب في بــاريس على الأوتيل دي فيل وهي دار البلديــة، وكيف خــرج الحــرس الوطــني للــدفاع عن الشعب، وكيف رفع الفرنسيون من جديد الـتريكولور - أي العلم المثلث الألـوان - على الكنـائس، والمبـاني العامـة. وهو علم الثـورة الفرنسـية الـذي كـانت الملكية قد ألغته بعد سـقوط نـابليون وعـودة الحكم إلى البوربـون وكيف انضم الجيش إلى الثـوار، وكيف انتهى الأمر بعـزل شـارل العاشر وطـرد ولي العهد إلى إنجلـترا، وبتـولي لافـاييت رئاسة الحكومة المؤقتة وبعــــودة لـــــويس فيليب، دوق أورليان، ليكـون وصـياً على العـرش ثم إعلانه ملكـاً على الفرنسيين، بعد أن أقسم يمين الولاء للدستور.

فأســـباب ثـــورة 1830 كما شـــرحها رفاعة الطهطـــاوي لمثقفي جيله تتلخص في شئ واحد وهو الأوتوقراطية أو الحكم المطلق.

وقد تجلت أوتوقراطية شـــارل العاشر في خرقه دســـتور 1818 مرتين: مرة بتمسكه بـوزارة بولينيـاك الـتي أقالتها الأغلبية البرلمانية ولجوئه إلى إصادر سلسلة من القوانين غير الدستورية دون الرجوع إلى البرلمان، وأمـره بفـرض الرقابة على المطبوعات وبمصادرة حرية الصحافة وحرية التعبير بوجه عام".

أقـول: هـذه الثـورة الـتي يشـيد بها الطهطـاوي ثـورة الحادية معدية لأي دين، قـــامت للقضـــاء على الرابطة الدينية لدى الشعوب المسيحية، وأكدت على عبادة الفـرد والمصـلحة وإطلاق العنـان لرغبـات الفـرد وقد أدت إلى تفسخ المجتمع الواحد وتفرق الناس شـيعاً وأحزابـاً ووقع المجتمع في فوضى وتنـاحر نتيجة لتشـعب الآراء واختلاف المشاعر التي كان يوحدها الدين.

فالشـيخ الطهطـاوي أعجبه بريق الحرية الـتي نـادت بها الثورة الفرنسية وحالة الأمن والرخاء المادي في المجتمع الفرنسي ولم يسبر غور مبادئ الثورة الفرنسـية وأسـباب اندلاعها ومن وراء أحداثها فهو لم يفهم من الحرية معناها الواسع الذي عنته الثورة الفرنسية وهي ثورة لا دينيـة، بل هي ثورة معادية للدين، وأصبع الماسـونية وأثر الصـهيونية العالمية فيها واضح مشهور.

لم يفهم الطهطـــاوي الحرية في ذلك المعـــنى اللاديـــني الواسع الذي يشمل حماية القانون لكل الأعمال والأقـوال التي تهز القيم الدينية والأعراف الإجتماعية.

وتجاهر بمخالفتها وتسفيهها، والتي تنشر الفوضى وتفـرق الجماعة بالتشـــكيك فيما يلتقي عليه النـــاس من عقائد وقيم، والتي تطلق للشـهوات العنـان لأنها لاتـرى أن على الدولة التزاماً دينياً أو خلقياً.

ثالثـاً: أسـاتذته الـذين أشـرفوا على تعليمه في فرنسا:

من أمثـــال: المســـيو "جومـــار" المشـــرف على البعثة التعليميـة. والكـونت "دي شـبرول" محافظ ولاية السـين وعضو مجلس النواب، وأحد علماء الحملة الفرنسـية على مصر.

ورئيس بعثة الإستشـــراق في عصــــره "سلفســـتردي ساسي" والمستشـرق "كوسـان دي برسـفال" وقد تتلمذ الطهطـاوي على مجموعة من أنبه علمـاء فرنسا في ذلك الوقت وعقد معهم صـداقات وعكف على مؤلفـاتهم، ولم تفته أمهـــات هـــذه المؤلفـــات منهـــا: "روح القـــوانين" لمنتسكيو و"العقد الإجتماعي" لجان جاك روسو..إلخ.

وقد ذكر الطهطـــاوي في كتابه (تخليص الإبريـــز) بعض المراسـلات بينه وبين كبـار علمـاء فرنسـا، وذكر عبـارات الحفاوة والتشجيع التي كتبها له هؤلاء العلماء.

فيقـول عن نفسـه: رسـالة من المسـيو دساسـي: "فيمن كـاتبني عـدة مـرات مسـيو دساسـي، ولنـذكر لك بعض مكاتبيه، فمنها ما كتبه باللغة العربيـة، ومنها ما كتبه باللغة الفرنساوية. صورة مكتـوب منـه: " من الفقـير إلى رحمة ربـه، سـبحانه وتعـالى، إلى المحب العزيز المكـرم والأخ المعز المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوي، صانه الله عزوجـــل، من كل مكـــروه وشـــر، وجعله من ذي العافية وأصـحاب السـعادة والخـير. أما بعد فـإن القطعة الـتي أكملت المطالعة فيها من كتابك النفيس وحـوادث إقامتك في بـاريس رددتها إليك على يد غلامـك، ويصـلك صـحبتها حاشـــية مـــني على ماتقوله في بـــاب الفعل في لغتنا الفرنساوية، فإذا نظرت فيها تـبين لك صـحة ما نسـتعمله من صيغة الفعل الماضي، فمن الـواجب عليك أن تصـنف كتابـاً يشـتمل على نحو اللغة الفرنسـاوية المتداولة عند أمم أوربا كلها وفي ممالكها حـــتى يهتـــدي أهل مصر إلى موارد تصانيفنا في فنـون العلـوم والصـناعات ومسـالكها، فإنه يعــــود لك في بلادك أعظم الفخــــر، ويجعلك عند القـــرون الآتية دائم الـــذكر ودمت ســـالماً. كتبه المحب: سلوستري دساسي. انتهى".

ورسـالة من المسـيو جومـار: "لما أراد مسـيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره، المؤلف باللغة العربية، قرأت هذا التاريخ، إلا اليسـير منـه، فحق لي أن أقـول: أنه يظهر لي أن صـناعة ترتيبه عظيمـة، وأن منه يفهم إخوانه من أهل بلاده فهمـاً صـحيحاً عوائـدنا وأمورنا الدينية والسياسـية والعلميـة، ولكنه يشـتمل على بعض أوهـام إسـلامية. (..) وبالجملة فقد بان لي أن مسيو رفاعة أحسن صرف زمنه مدة إقامته في فرنسا، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة، وتمكن منها كل التمكن، حـتى تأهل لأن يكـون نافعـاً في بلاده، وقد شـهدت له بـذلك عن طيب نفس، وله عنـدي

منزلة عظيمــة، ومحبة جسـيمة. البــارون: سلوســتري دساسي. باريس في شهر فبراير سـنة 1831 - 19 في شعبان سـنة 1246". وهنـاك بعض الرسـائل الأخـرى من مسـيو كوسـين دي برسـوال المؤرخة بتـاريخ 24 فـبراير 1831 ولكن نكتفي بهذين المثالين.

رابعاً: تأثره بآراء "سان سيمون" :

وهو مفكر فرنسي ولد عام 1760 وهو مؤسس المـذهب الوضـعي الـذي يـرى تطـبيق المبـادئ العلمية على جميع الظـواهر الطبيعية والإنسـانية، وفهمها بعيـداً عن الـدين تماماً وقد اصر "سان سيمون" الثورة الفرنسية.

بل يعتــبره البعض من أبــرز محركيها كما أنه المؤسس الفعلي لعلم الإجتماع، فهو أستاذ "أوجست كـونت" الـذي تعرف عليه سـنة 1817م وجعله سـكرتيراً له لمـدة ست سـنوات، ومنه اسـتقى "أوجست كـونت" مبـادئ تقـويض الدين وتدميره، وقد تأثر بأفكاره كارل ماركس.

وخلاصة مذهب سيمون الإلحادي:

" **أ- يرى سيمون أن الإنسان هو الذي اخترع الله مدفوعاً بـدوافع ماديـة!** وبعد أن تم له ذلك الإخـتراع اعتقد في أهمية نفسـه، ويـذهب سـان سـيمون إلى أبعد من ذلك فيقـول: إن الله في الحقيقة فكـرة ماديـة، وهي نتيجة لدورة السائل العصبي في المخ.

ب - اقترح سان سـيمون تكـوين جمعية من واحد وعشــــرين عضــــوا لتمثيل الإدارة الإلهية في الكون، ويقول سـان سـيمون: إن الله يحدثـه، ويحى إليه بفكـرة الديانة الجديـدة - ديانة نيـوتن - ويقـول لـه: إن مجلس سوف يمثلـني على الأرض، فيقسم الإنسـانية إلى أربعة أقســام: الإنجليزيــة، والفرنســية، والألمانيــة، والإيطاليـة، وسـوف يكـون لكل قسم من هـذه الأقسـام مجلس على غـرارالمجلس الـرئيس، وسـوف يرتبط كل فـرع في العـالم مهما كـان موطنه بأحد هـذه الأقسـام (الأوروبية الغربية بـالطبع)، وبـالمجلس الـرئيس ومجلس القسم الـذي يتبعـه، وينتخب النسـاء في هـذه المجـالس على قدم المساواة مع الرجال".

وقد التقى الطهطـاوي بتلاميذ سـان سـيمون في مدرسة الهندسة العسـكرية ببـاريس، وتـأثر بأفكـارهم بل والتقى بهم في القاهرة عقب عودته إلى مصر، ونقل الطهطـاوي أهــداف الماســونية في مؤلفاتـــه، بمعـــنى أوضح التقى الطهطــاوي وأتبــاع ســان ســيمون على هــدف واحد هو القضاء على الإسلام، وتغريب المسـلمين بحجة التطـوير، ومواكبة التحديث الأوروبي.

هكذا اصطنع الطهطـاوي على أعين علمـاء الفكر المـادي الحـديث في فرنسـا، وهـؤلاء هم شـيوخه الجـدد الجـدد!! وهذه أهم الينـابيع الـتي اسـتقى الطهطـاوي منها أفكـاره التي نقلها إلى العالم الإسلامي.

وكانت أخطر الصور التي نقلها الطهطــاوي إلى مجتمعاتنا هي الحيــاة البرلمانية ومجـــالس التشـــريع وهي عصب المنظومة الغربية بل وعمودها وإن اختلفت أشكالها.

ومن منطلق هــذه التقدمــة، ســنلقي الضــوء على بعض الأفكار الـتي اسـتقاها الطهطـاوي من الدسـتور الفرنسي كقضــية الحقــوق المدنية الــتي تعتمد على ركــيزتين هما (المسـاواة والحريـة) وقد دنـدن الطهطـاوي حـول هـذه الحقـــــوق في معظم كتبه وهي الـــــتي جعلته مغرمـــــاً بالمنظومة الغربية:

أولاً: الدســـــتور الفرنسي والكلام عن الحياة البرلمانية:

بداية لم يكن الطهطاوي مترجماً بـالمعنى الحـرفي لهـذه المهنة، بل إن الطهطاوي قد تجاوز ذلك كثيراً..

فالشـيخ رفاعة يقـوم بالترجمة والشـرح والتعليق وابـداء وجهة نظره في كثير من القضايا وهـذا ما سنوضـحه على النحو التالي:

يقول الطهطاوي في تقدمته لترجمة الدسـتور الفرنسـي: "والقــانون الــذي يمشي عليه الفرنســاوية الآن ويتخذونه أساســاً لسياســتهم، هو القــانون الــذي ألفه لهم ملكهم المسمى لويز الثامن عشر ولايزال متبعاً عندهم ومرضــياً لهم وفيه أمور لاينكره ذووا العقـول أنها من بـاب العـدل. والكتاب المذكور الذي فيه هذا القانون يسـمى الشـرطة.

ومعناها في اللغة اللاطينية ورقـــــة، ثم تســـــومح فيها فـأطلقت على السـجل المكتـوب فيه الأحكـام المقيـدة، فنـذكره لـك، وإن كـان غـالب ما فيه ليس في كتـاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم، لتعـرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العـدل والإنصـاف من أسـباب تعمـير الممالك وراحة العبـــاد، وكيف انقـــادت الحكـــام والرعايا لــذلك حــتى عمــرت بلادهم، وكـثرت معــارفهم، وتــراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم، فلاتسمع فيهم من يشـكو ظلمـاً أبداً، والعدل أساس العمران."

أقـــول: نلاحظ أن الطهطــاوي يمـــدح دين العلمانيـــة؛ فقانونهم البشري هو الـذي أراح بـالهم وعقـولهم وكـثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم..إلخ .

وكـــــــــأن الرجل يتكلم عن الدولة العمرية أو الخلافة الراشــدة! ولا نقــول على الرجــل؛ فالطهطــاوي يعلم أنه يتكلم عن قـــوانين وضــعية من أدمغة بشـــرية كما يقـــول "وإن كـان غـالب مافيه ليس في كتـاب الله ولا في سـنة رسوله صلى الله عليه وسلم" ورغم هـذا الوضـوح انـبرى الأســتاذ فتحي رضـــوان مـــدافعاً عن عبــارة الطهطــاوي المـــذكورة: "ولم يكن قصد الطهطـــاوي بهـــذه العبـــارة الإشارة إلى علمانية الحكم الفرنسي، أي فصل الدين عن الدولة".

وتصـــــــــداقاً لوجهة نظرنا نجد أن معظم من كتب عن الطهطـــاوي يثبت مـــدح الطهطــاوي العلمانية الغربيـــة؛ فالدكتور محمد عمـارة محقق الأعمـال الكاملة لمؤلفـات الطهطاوي يذكر: "فالطهطاوي يمتدح علمانية الفرنسـيين وتسامحهم الديني الناتج عن هذه العلمانية".

ولمزيد من تلبس الطهطـــاوي بـــالفكرة العلمانية وخاصة في التشـريع، يقـول الطهطـاوي في كتابه منـاهج الألبـاب "ثم إن الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الأقضية والأحكـام على وفق معاملات العصر، بما حدث فيها من المتفرعات الكثـيرة المتنوعة بتنـوع الأخذ والإعطـاء من الأنـام"، ولنا وقفة مع هذه الفقرات في الفصل الثالث - إن شاء الله - وفي هذا القدر كفاية.

عود إلى الدستور الفرنسي حيث يترجم الطهطـاوي مـواد الدســتور بالتفصي المتعمــد، ثم يشــرع في التعليق على

بعض بنــوده، وقد أفسح لها المجــال في فصل كامل في كتابه تخليص الإبريز.

نختــار بعض الفقــرات والبنــود الــتي ترجمها وعلق عليها الشيخ رفاعة: ذكر الطهطاوي في ترجمة ديباجة الدسـتور الفرنسي "وفي هذا القانون عدة مقاصد؛
المقصد الأول: (الحق العام للفرنساوية).
الثاني: (كيفية تدبير المملكة).
الثالث: (في منصب ديوان البير).
الرابع: (في ديوان رسل العمـالات الـذين هم أمناء الرعايا ونوابهم).
الخامس: (في منصب الوزراء).
السادس: (في طبقات القضاة وحكمهم).
السابع: (في حقوق الرعية)".

ثم شــرع الطهطــاوي في ذكر مــواد الدســتور الفرنسي نختــار منهــا: "المــادة الخامسة عشــر: (تــدبير أمــور المعاملات بفعل الملك وديوان البير ورسل العمالات)".

ولنــترك الطهطــاوي يوضح لنا وظيفة هــذه الــديوانين: "وظيفة أهل ديـوان البـير: تجديد قـانون مفقـود أو إبقـاء قانون موجود على حاله ويسمى عند الفرنساوية شـريعة، فلذلك يقولون: شريعة الملك الفلاني. ومن وظيفة ديـوان البـير أن يعضد حقـوق تـاج المملكة ويحـامي عنه ويمـانع سـائر من يتعـرض لـه، وانعقـاد هـذا الـديوان يكـون مـدة معلومة من السنة في زمن اجتماع ديوان رسل العمـالات بــإذن ملك الفرنســيس، وعــدد أهل ذلك الــديوان غــير منحصر في مخصوصة، ولايقبل دخول الإنسان فيه إلا وهو ابن خمسة وعشرين سنة، ولايشرك في الشــورى إلا وهو ابن ثلاثين سنة، مالم يكن من بيت المملكة، وإلا فبمجــرد ولادته يحسب من أهل هذا الديوان، ويشرك في المشورة حين يبلغ عمــره خمسة وعشــرين ســنة، وكــانت وظيفة البيرية متوارثة للـذكور، فيقـدم أكـبر الأولاد، ثم بعد موته يقدم من يليه، وهكذا".

ويشرح لنا الطهطاوي وظيفة ديوان رسل العمالات قـائلاً: "ووظيفة ديوان رسل العمـالات غـير متوارثـة، ووظيفتهم امتحـان القـوانين والسياسـات والأوامر والتـدبير، والبحث عن إيراد الدولة ومدخولها ومصرفها، والمنازعة في ذلـك، والممانعة عن الرعية في المكوس والفـرد وغيرها إبعـاداً للظلم والجــور، وهــذا الــديوان مؤلف من عــدة رجــال

ينصـــبهم أهـــالي العمـــالات، وعـــددهم أربعمائة وثمانية وعشرون رسـولاً، ولا يقبلـون إلا بعد بلـوغ كل واحد منهم أربعين سنة، ولابد أن يكـون لكل واحد منهم عقـارات تبلغ فردتها ألف فرنك كل سنة" ، تأمل! هذا الوصف المسهب لهذه المادة!

فالطهطـاوي يتحـدث عن ديـوان البـير وهو بمثابة مجلس شـورى للسـلطة الحاكمـة، ويشـبه هـذا الـديوان مجلس اللـــوردات في انجلـــترا. ثم يتحـــدث عن ديـــوان رسل العمـــالات وهو ما يســـمى بمجلس التشـــريع وهو يشـــبه مجلس العموم البريطاني، ومايسمى بمجالس الشـعب أو الأمة في بلادنا هـذه الأيـام.. ونلاحظ أن الطهطـاوي تكلم عن وظيفة الـــديوان وشـــروط وكيفية عضـــوية هـــذه المجـالس بالتفصـيل!! وكأنه يقـول لمجتمعاتنا الإسـلامية هـذه صـورة مثلى لحكم العلمانية الغربية فحـري بكم أن تطبقوها في مجتمعاتكم!! وفعلاً نزلت كتابات الطهطاوي على أرض الواقع وصـرنا نـدور في فلك المنظومة الـتي كـان ينشـدها الشـيخ رفاعة الأزهـري النشـأة، الصـوفي النزعـة، الأشـعري العقيـدة!! ولن نطيل في التعليق على مـواد الدسـتور الفرنسي ولكن سـنتعرض لبعض القضـايا المنبثقة من قضـية ترجمة الدسـتور الفرنسي الـتي أثارها الطهطـاوي في كتبه وتغـنى بها العلمـانيون الجـدد وهي كثيرة منها: الحقوق المدنية ومايتعلق بها مثل (المساواة ـ الحرية).

قضية الحقوق المدنية:

لم يستخدم الطهطاوي مصطلح الحقوق المدنية في كتابه تخليص الإبريز أي في بداية حياته وهو في ريعـان شـبابه، لكنه استخدم المصـطلح المـذكور بعد أربعين سـنة وكـان ذلك في كتابه منـاهج الألبـاب الـذي ألفه سـنة 1870لقد تحدث الطهطاوي عن الحقوق المدنية أو مايسمى بإعلان حقوق الإنسـان والمواطنة حيث ذكر ذلك في خاتمة كتابه منـــاهج الألبـــاب في الفصل الأول تحت عنـــوان (حقـــوق الرعية).

ويعرف الطهطاوي الحقوق المدنية قائلاً: "هي حقوق أهل العمـــران بعضـــهم على بعض لحفظ أملاكهم ومـــالهم وما عليهم، محافظة ومدافعـــة، ويتفـــرع من حقـــوق المملكة العمومية أي الساسة والإدارة الملكيـــة، ومن الحقـــوق المدنية الشخصية فرع آخر من الحقوق مايسـمى بحقـوق

الدوائر البلدية، يعني حقـوق النـواحي والمشـيخة البلديـة، فهذه الحقـوق تتعلق بالامتيـازات الخصوصـية لكل ناحيـة" أقول: نلاحظ أن الطهطاوي لم يأت بجديد فهـذه الحقـوق مدونة في كتب الفقه الإســلامي تحت مقاصد الشــريعة الإســلامية نجـــدها في أبــواب المعـــاملات والأنكحـــة، والفــرائض، والوصــايا، والحــدود، والجنايــات، والأقضــية، والبينات والـدعاوى..إلخ. فالطهطـاوي يتكلم عن القـانون الإداري والقـانون الدسـتوري بـالمفهوم الغـربي الحـديث لــذلك بسط الكلام عن الــدوائر البلدية وطريقة انتخــاب أعضاء المجالس التشريعية والبلدية..

فالطهطـــاوي ينقل الأنمـــوذج ويرسم السياسة من خلال ترجمته ومؤلفاته. لذلك لاغرو أن يشيد العلمـانيون الجـدد بعبقرية الطهطـــاوي ومنهجيتـــه؛ حيث امتدحه لفيف من الكتــاب والأدبــاء؛ فهــذا ســمير أبوحمــدان يقــول عن الطهطاوي بعد تعليقه على قضية الحقـوق المدنيـة: "لعله من نافل القـول بـأن رفاعة الطهطـاوي يـأتي في طليعة من تصدى، في مصر لمسألة الحريات والحقوق المدنية.

وتأسيســـاً على ذلك نســـتطيع أن نعتــــبره عن حق أب الديمقراطية المصرية. ولعل رفاعة في تركيزه على هـذه النقطة أي الحريات والحقوق المدنية.
كان ينطلق من فهم عميق لبنية الدولة الحديثة.

فلن تكـون الدولة الحديثة في متنـاول اليـد، وفي متنـاول المصريين تحديداً، مـالم يطـالبوا بدسـتور يحفظ حقـوقهم المدنية وحريــاتهم. فلاحداثة بغــير حريــات، ولادولة على نمط ما هو سائد في أوربا بغير حقوق مدنية تحفظ كرامة الإنســان وتنظر إليه كقيمة قائمة بــذاتها" تأمــل! هــذه الأوصـاف الـتي يرددونها (لاحداثة بغـير حريـات) (ولا دولة على نمط ماهو سائد في أوروبا بغير حقــوق مدنية تحفظ كرامة الإنســان) أي بمفهــوم المخالفــة: لا حداثة طالما الإســـلام يحكم!! لا دولة على النمط الأوروبي طالمــــاً الإســــــلام يحكم!! لا كرامة للإنســــــان في ظل حكم إسلامي!! هذا ما يريـده الطهطـاوي ومريـدوه وتلاميـذه.. إسلام الموالد والـدراويش!! إسـلام كنسي لاغـير!! نتكلم الآن عن قضــيتين متعلقــتين بموضــوع الحقــوق المدنية ذكرهما الطهطاوي بصدد شرحه للدستور الفرنسي:

(أ) المساواة :

ذكر الشـــيخ رفاعة نص المـــادة الأولي من الدســـتور الفرنسي: "سـائر الفرنسـاوية مسـتوون قـدام الشـريعة" ويعلق الطهطـــاوي على نص هـــذه المـــادة قـــائلاً: "(الفرنساوية مسـتوون).. معنـاه سـائر من يوجد في بلاد فرانسا من رفيع ووضـيع لايختلفـون في إجـراء الأحكـام المذكورة في القانون حتى إن الدعوة الشرعية التي تقام على الملـك، وينفذ عليه الحكم كغـيره، فـانظر إلى هـذه المادة الأولى فإن لها سـلطاناً عظيمـاً على إقامة العـدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه العظيم نظراً إلى إجراء الأحكام، ولقد كادت هذه القضية أن تكـون من جوامع الكلم عند الفرنساوية، وهي من الأدلة على وصول العـدل عنـدهم إلى درجة عاليـة، وتقـدمهم في الآداب الحاضرة".

هكـذا يسـتمر الطهطـاوي في الإطـراء بعلمانية فرنسا ويمتـدح قـوانينهم لدرجة الهيـام! فنص المـادة الأولى أخذ بلبه وطفق يردد (لافرق بين حـاكم ومحكـوم.. الكل أمـام القانون سواء.. كـادت هـذه القضـية أن تكـون من جوامع الكلم عند الفرنساوية).. لو كـان غـير الشـيخ رفاعة قالها لقلنا ربما لم يقـرأ الرجل عن العـدل والمسـاواة والحرية في شريعة الإسلام!!

فهل يجهل الطهطـــاوي وهو الشـــيخ الأزهـــري مقاصد ومحاسن الشـــريعة الإســـلامية؟! هل يجهل الطهطـــاوي مبادئ شريعتنا الغراء التي سطرت للبشرية صـحائف من ضـياء حيث العـدل والمسـاواة والحرية ورفع الظلم..إلخ، تلكم الشريعة التي طبقها الأئمة الإعلام عدة قرون؟! أكاد أجـزم أن الطهطـاوي يعلم يقينا أن تـاريخ الإسـلام حافل بمثل هذه المبـادئ والشـعارات الـتي عرفها في بـاريس.. فالطهطاوي ربيب الأزهر يعلم أحكام الشـريعة الإسـلامية جيـداً ومن ثم نسـتطيع أن نؤكد أنه لا يشـفع للطهطـاوي جور حكام زمانه وبعدهم عن شريعة الإسـلام أن يسـتورد للمسلمين قوانين الفرنجة ويتغـنى بها لتحل محل شـريعة الرحمن!!

وقد وقع الطهطـاوي في تنـاقض عجيب!! ففي الـوقت الذي يشيد فيه بنص المادة الأولى من الدسـتور الفرنسي (سائر الفرنساوية مستوون قـدام الشـريعة) .. (فلا فـرق بين حاكم ومحكوم ولابين رفيع ووضيع).. نجد هذه المـادة التي هي من جوامع الكلم عند الفرنساوية على حد قوله!

تصطدم بنص المادة الرابعة والثلاثين في باب كيفية تدبير المملكة الفرنساوية.

وهذا نصها: المـادة الرابعة والثلاثـون: لايمكن أن يقبض أحد على واحد من أهل ديوان البير إلا بأمر ذلك الــديوان، ولايمكن أن يحكم عليه غيرهم في مواد الجنايات".

أقول: تأمـل! هـذه المـادة تتكلم عن الحصـانة البرلمانية لعضو مجلس النواب (شـورى/شـعب/أمـة) بمعـنى أن أي عضو يرتكب أية جريمة سواء (جناية/جنحـة/مخالفـة) فإنه لايسـتطيع أحد أن يحـرك ضـده الـدعوى العمومية إلا بعد موافقة مجلس الشـعب أو الشـورى ولايسـتطيع مـأمورة الضبط القضائي أن يقبض عليه بموجب هذه الحصانة!!

فأين المسـاوة وأين (لافـرق بين حـاكم ومحكـوم)!! وأين (جوامع الكلم)!! هــذه المــادة الــتي صــدرتها الثــورة الفرنسـية وهي مـادة اسـتغلال النفـوذ؛ تعطي امتيـازات لطبقة من أبنــاء المجتمع على حســاب الآخــرين، فلا يســـتطيع أحد أن يقاضي عضو مجلس النـــواب إلا بعد موافقة المجلس وهي عملية معقـــــــدة، وقد لايوافق المجلس على سحب الحصانة من العضو!! فـأي مسـاواة هذه التي يبشرنا بها الطهطاوي؟!!

وأين هـذه المسـاواة من قـول الرسـول صـلى الله عليه وسلم: "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

أين هـذا من التطبيقـات الواقعية في عهد الرسـول صـلى الله عليه وسـلم في إقامته حد القـذف على حسـان بن ثابت رضي الله عنه؛ رجل الإعلام الأول الـذي كـان ينـافح عن دعوة الإسلام؟!
وأين هــذه المســاواة من قــول عمر رضي الله عنه لأحد أقبــاط مصر وهو يشــكو ابن الحــاكم "اضــرب ابن الأكرمين".. أين حصانة عمرو بن العاص الذي جيئ به من مصر وهو واليها، ليحاكم أمام أحد رعيتـه، ويقتص من ابنه وأمام جمع من عامة المسلمين!!

وهل نسي الطهطاوي أو تناسى عـدل الرشـيد وآل زنكي وصـلاح الـدين الأيـوبي؟!! التـاريخ الإسـلامي ذاخر بهـذه الوقـائع النورانية ولكن مـاذا عسـانا أن نقـول إزاء هـؤلاء المهزومين الذين يستضيئون بنار العلمانية!!

(ب): الحرية :

ذكر الطهطاوي في ترجمته للدستور الفرنسي: "المادة الرابعة: ذات كل واحد منهم يستقل بها، ويضمن له حريتها، فلايتعرض له إنسان إلا ببعض حقوق مذكورة في الشريعة، وبالصورة التي يطلبه بها الحاكم" وذكر أيضاً: "إلمادة الثامنة: لايمنع إنسان في فرنسا أن يظهر رأيه، وأن يكتبه، ويطبعه، بشرط أن لايضر مافي القانون، فإذا ضر أزيل"، ويعلق الطهطاوي علي هاتين المادتين قائلاً: "أما المادة الرابعة: فإنها نافعة لأهل البلاد والغرباء، فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء. أما المادة الثامنة: فإنها تقوي كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لايضر غيره، فيعلم الإنسان سائر ما في نفس صاحبه".

ثم يتكلم الطهطاوي تحت بند (خلاصة الحقوق الفرنساوية الآن بعد سنة 1830): "ومن الأشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن لكل إنسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة. ويعاقب من تعرض لعابد في عبادته، ولايجوز وقف شئ على الكنائس أو إهداء شئ لها إلا بإذن صريح من الدولة، وكل فرنساوي له أن يبدي رأيه في مادة السياسات أو في مادة الأديان، بشرط أن لايخل بالإنتظام المذكور في كتب الأحكام".

وفي كتابه مناهج الألباب ينقل الطهطاوي وصية القس الفرنسي (فنلون) لولي عهد بريطانيا (جرجس جاكس) وكان بروتستاني المذهب: "إذا آل الملك إليك أيها الأمير لاتجبر رعيتك القاثوليقية (الكاثوليكية) على تغيير مذهبهم ولاتبديل عقائدهم الدينية، فإنه لاسلطان يستطيع أن يتسلطن على القلب وينزع منه صفة الحرية".

هكذا يستمر الطهطاوي في تحسين صورة الثورة الفرنسية وشعاراتها وينقل لنا وصية القلس الفرنسي فنلون باعتبره غير متعصب وإظهار صورة ولي عهد بريطانيا على أنه حاكم يتقبل النصيحة، وفي الجملة تحين لدين الغرب الجديد باعتبارهم أهل المعارف والعلوم والتقدم ودعاة الحرية التي يجب على العالم الإسلامي أن يسير على نفس الصراط الغربي!!

رغم أن الواقع يكذب مثل هذه الوصايا فيما يسمى بحرية العقائد؛ ذلك الشعار المزيف لدى الغرب! فالحرب بين

أهل الملة المســيحية لم تــزل مســتعرة بين الكاثوليك والبروتســتانت في أوروبا أم الحريــات! وبين الكاثوليك والأرثوذكس!! أما العداء العقدي المستمر والمسـتعر ضد الإسلام فلايخفى على أحـد!! فكـان أولى بالطهطـاوي أن يذكر المسلمين بمحنة إخوانهم في الجزائر الذين يكتـوون بنـير الآلة العسـكرية الفرنسـية! نعم فرنسا أم الحريـات التي اعتبر الطهطـاوي حربها مع فرنسا من أجل مشـاكل تجاريــة!! كــان الأولى أن يتكلم عن الحرية الــتي نالها المسلمون في محاكم التفتيش في الأندلس!!

أما قضية الحرية العقدية؛ فالإسلام هو الدين الوحيد الـذي رسخ هذا المبدأ الذي يتشدق به العلمانيون أمس واليـوم! (لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).. لولا سماحة الإسلام وعدل ولاته وسلاطينه لما قامت لأوروبا قائمة! لو عامل طــارق بن زيــاد وموسى بن نصـير وعبد الــرحمن الناصر وابن أبي عـامر وابن تاشـفين وغـيرهم من ملـوك الإســلام لو عــاملوا نصــارى الأنــدلس والبرتغــال بنفس معاملة إلــيزابيث وفردريك وغـيرهم من ملــوك ورؤســاء أوروبا لما قــامت للمســيحية قائمة إلى وقتنا الحاضــر!! ولكن قدر الله كان مقدورا!!

فهل أفلس التـاريخ الإسـلامي ليـأتي الطهطـاوي بوصـية القس (فنلــون) كعنــوان لحرية العقائد وعــدم التعصــب! ويترك آيات الله ووصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مرض الموت وهو يوصي بأهل الذمة خيراً! وهذه شـهادة رجل من أهل أوروبا تصـداقاً لما نـرى؛ إذ يقـول (ستنلي لينبول) منددا بوحشـية بـني جلدته ومشـمئزاً من سـوء أخلاقهم وقسـوتهم مع مسـلمي الأنـدلس: "وكـانت أخلاقهم على اتساق مع رعيتهم، وماكان يتوقع من هــؤلاء الجفاة المتوحشين إلا التعصب والقسوة، فإنهم لم يؤمنوا مستجيراً، ولم يـتركوا فـاراً، ولم يبقـوا على جـريح، وهـذا يذكرنا والحزن ملء صـدورنا بما كـان للعـرب من بطولة ورفق وسماحة خلـق، فكثـيراً ما عفـوا عن أعـدائهم نبلاء متكرمين، بينما نرى اليوم أن رجال ليون وقشتالة العتـاة، يذبحون جميع الحاميات، ويستأصلون مدناً مليئة بالقطان، حتى إذا نجا من سيفهم لم ينج من استعبادهم".

وهل انتهى عداء الغرب للإسـلام وأهلـه؟! لم ينته بعد وما محنة المســـلمين في قلب أوروبا عنا ببعيــــد؛ البونسة والهرسك وكوسوفو، وتزايد العداء ضد الأقليات المسـلمة الــتي تعيش في دول الحريــات والتحضر والمدنية وحرية

العقائد كفرنسا أول دولة غربية تتخذ العلمانية ديناً قـامت قيـامتهم يـوم أن وضـعت طالبة مسـلمة على رأسـها خمـاراً!! وبريطانيا وألمانيا وغـيرهم من دول الغـرب بالإضافة إلى الدولة الأولى في العالم أمريكا الـتي جعلت الإسلام عدوها الأول وهي التي تتبنى سياسة التخويف من الإسلام وضربه وحصاره وتجويع شعوب المسلمين!!

تكلم الطهطـاوي عن سـلطات الدولة الحديثة في كتابه (منـاهج الألبـاب): "فـالقوة الحاكمة العمومية وما يتفـرع عليها تسمى أيضـاً بالحكومة وبالملكيـة، هي أمر مركـزي تنبعث منه ثلاثة أشـعة قوية تسـمى أركـان الحكومة وقواها؛

فالقوة الأولى: قوة تقنين القوانين، تنظيمها وتـرجيح ما يجـري عليه العمل من أحكـام الشـريعة أو السياسة الشرعية.

الثانية: قوة القضاء وفصل الحكم.

الثالثة: قوة التنفيذ للأحكام بعد حكم القضاة بها".

هكـذا نـرى أول غيث للعلمانية (سـلطة تشريعية/قضائية/تنفيذية) ثم ينهمر علينا الطهطاوي بسيل من ترجمات للقوانين والمؤلفات الفرنسـية لإصـباغ حياتنا بسربال من العلمنة الغربية المستوردة.

ثمرات الفكر الطهطاوي :

أما عن أثر هـذه الأفكـار الطهطاوية على أرض الواقع فنوجزها في النقـاط التاليـة: ترجمة وتعـريب القـوانين: "عندما أراد الخديو إسماعيل إصلاح القضـاء، أنشأ لترجمة القـوانين الحديثة (قلم) الترجمة الجديد سـنة 1863م، وعيّن رفاعة ناظراً له فاستدعى تلاميـذه القـدامى الـذين تخرجـوا من مدرسة الألسـن، وعـاونوه في ترجمة القـوانين، ومن هـؤلاء التلاميذ القـدامى: عبد الله السـيد، وصـالح مجـدي، ومحمد قـدري، ومحمد لاظ، وعبدالله أبوالسعود، وكان مقر هذا القلم في غرفة واحـدة بـديوان المدارس.

ومع ذلك أنجزوا ترجمة مجلـدات القـانون الفرنسي (كـود نابليون) الـذي طبع في بـولاق مـابين عـامي سـنة 1866 وسنة 1868م" ونزولاً على رغبة الخـديو إسـماعيل انكبّ الطهطاوي وآخرون على ترجمة القـوانين الفرنسـية وفي طليعتها القـانون المـدني وقـانون الإجـراءات الجنائيـة،

وقانون العقوبات وهي كلها قوانين فرنسية، ولعل هذه الموسوعة القانونية كانت الأساس الذي بني عليه القانون المصري الحديث" هكذا تم ترجمة عدة قوانين في فترة زمنية وجيزة منها: تعريب الدستور الفرنسي الذي نشره الطهطاوي في (تخليص الإبريز).

تعريب قانون العقوبات الفرنسي :

تعريب قانون الإجراءات الجنائية الفرنسي.
تعريب قانون التجارة الفرنسي الذي طبع سنة 1868م.
تعريب القانون المدني الفرنسي الذي ترجمه االطهطاوي في مجلدين سنة 1868م.

افتتاح أول مجلس نيابي في تاريخ مصر والعالم العربي والإسلامي:

افتتح الخديو إسماعيل مجلس شورى النواب بخطبة العرش في 25 نوفمبر 1866م بالقلعة بمدينة القاهرة، وكان هذا أول مجلس نيابي في تاريخ الحياة البرلمانية للمصريين ذلك الأنموذج الغربي الذي تكلم عنه الطهطاوي في مؤلفاته.

المحاكم المختلطة:

كانت أول خطوة في سبيل إنشاء المحاكم المختلطة عندما فتح الخديو إسماعيل الوزارة الفرنسية في عام 1867 أي في حياة الطهطاوي فقد شهد ثمرة أفكاره وهو على قيد الحياة.

وفي أوائل شهر يولية 1870م تم طبع القوانين المصرية المختلطة فوزعها نوبار باشا على الدول المختلفة، فمرر اللورد (جرانفل) وزير الخارجية الإنجليزي إلى المركيز (دي لافاليت) سفير فرنسا في لندن في 22 يولية 1870 أنه بعد اطلاعه عليها يوافق تمام الموافقة على إنشاء الهيئة القضائية الجديدة المرغوب فيها بمصر، وعلى شكلها المبين في المشروع الفرنساوي" "تم تشكيل هذه المحاكم في ذي القعدة 1291هـ (أول يناير 1875م)، إلا أنها لم تفتح إبوابها إلا في شهر المحرم 1293هـ (فبراير 1876م)".

أقــول: وكــانت هــذه أول نطفة لاســتبدال الشــريعة الإسلامية وتنحيتها بشكل رسمي من قبل الخديو وعلى يد الطهطــاوي وتلامذته من أمثــال محمد قــدري باشا أحد أعلام القانون الـذي قـام بعبء ترجمة القـوانين الأوروبية وتقنينها وشرحها بعد الطهطاوي، وساهم في تخـريب بنية المسلمين الشرعية، وقد تخـرج على يديه زمـرة من رواد القـانون حـتى جـاء عبد الـرزاق السـنهوري باشا الـذي اســتكمل مســيرة التخــريب وقــدم للحكــام خــدمات ومسوغات لإضفاء الشرعية على سلطانهم!!

وبنــاء على ما ســبق اخــترت عينة من كتابــات بعض المفكـرين والأدبـاء الـذين أشـادوا بالطهطـاوي وبآثـاره الفكرية لتعضيد ما وصلنا إليه من نتيجة.

يقول الدكتور حسين فـوزي النجـار: "ولعل أعظم ماقدمه محمد علي لمصر أنه وضع البـذرة الأولى لتعليم عصــري أخذت تـؤتي أكلها في عصر إسـماعيل، روى تربتها رفاعة الطهطــاوي في كثــير من الوصب والجهد ثم جــاء علي مبـارك فنماها وأوصل جـذورها فـأينعت وأثمـرت، وشـهد تباشير الطهطاوي في أخريات أيامه عندما تهيأت العقـول لتقبل حركة الإصـلاح وأخـذت البلاد تسـلك سـبيلها إلى الثورة السياسية والفكرية والإجتماعية" .

وتحت عنــوان (أبو الديمقراطية المصــرية) ، كتب عنه لـويس عـوض: "إن كفـاح الشـعب المصـري في سـبيل الديمقراطية قديم، وقد كان لمصر برلمان اسمه (البــولا) قبل الفتح الرومــاني وكــان مقــره مدينة الإســكندرية، فعصف به الرومان. وقد حاول المصـريون استخلاصه من أبـاطرة الرومـان ولكنهم عجـزوا لأنهم تمسـكوا بمبـادئ الحرية والمسـاواة غـير أنهم فقـدوا القـدرة على التنظيم السياسي، أو على الأصح أفقدهم إياها غزاتهم. وبعد ألفي عام أو نحوهما من الحكم الأوتوقراطي، ظهر فيهم رفاعة رافع الطهطـاوي لينـادي بسـيادة الشـعب على الملـوك وليفتح أعينهم على تجــارب الأمم الأخــرى في ممارسة الحرية والمساواة من خلال الدساتير والنظم النيابية" .

ويقول سمير أبو حمـدان عن الطهطـاوي: "ومن هنا فـإن الفضل يعود للطهطاوي في غرس فكرة الحياة البرلمانية الممثلة بالسلطة التشريعية في تربة البلاد الإسـلامية وقد أنبت هــذا الغــرس الطيب (على حد زعم الكــاتب) بعد

سنوان من وفاة الطهطاوي، وذلك عندما قامت في مصر أول جمعية تشريعية على أساس انتخابي. والجدير بالـذكر هنا أن الطهطاوي مهّد لفكرته هذه بترجمة لبنود الدستور الفرنسي وشرحها بحيث أصـبحت في متنـاول الجميع من ساسة ورجال فكر وأناس عاديين. وكان رفاعة يـرمي من وراء التفسـيرات والشـروح المسـهبة لبنـود الدسـتور الفرنسي إلى خلق وعي برلمـاني في مصر الـتي لم تكن قد عـرفت حـتى ذلك الـوقت سـوى المجـالس الإدارية المعينة من قبل العثمانيين".

ويثني عليه محقق الأعمال الكاملة الدكتور محمد عمـارة: "ولقد كان الطهطاوي هو المبشر بهذا الفكر الديمقراطي الليبرالي في ربوع الشرق الـتي ألفت طـويلاً نمط الحكم الفردي (يقصد الحكم الإسلامي) بل لقد اسـتطاع أن يضع كل أسس هـــذا النمط من أنمـــاط التفكـــير والســـلوك والممارسة السياسية بين يدي قومه".

أقول: نستطيع أن نقرر أن الشيخ رفاعة الطهطاوي أول من غـرس النبتة الأولى للعلمانية الغربيـة، وأول من وضع النطفة الأولى لتنحية الشـريعة الإسـلامية، وأول من بشر بـالفكر الـديمقراطي على غـرار المنظومة الغربية الـذي يتعارض والشريعة الإسلامية.

الفصل الثالث
قضية التحسين والتقبيح

تقدمة :

إن قضـية التحسـين والتقـبيح من أخطر القضـايا الـتي قصمت ظهر أمتنا الإسـلامية. فما نـراه اليـوم من قـوانين وضعية، وتفسخات اجتماعيـة، وتحلل خلقي، وعلو الباطل في مجتمعاتنـا...إلخ، كل ذلك نتـاج قضـية التحسـين الـتي أثارها المعتزلة الذين قـالوا بالتحسـين والتقـبيح بواسـطة العقـل، وأن العقل هو الـذي يحكم بحسن الأشـياء وقبحها بصـرف النظر عن نصـوص الكتـاب والسـنة. هكـذا أطلق للعقل العنـان فصـار العقل ربـاً جديـداً!! فما يـراه العقل حسـناً فهو حسـن، وما يقبحه العقل فهو كـذلك ولاعـبرة بنصوص القرآن المنزل من لـدن حكيم حميـد، ولا بالسـنة النبوية المطهـــرة طالما خالفها العقـــل!! ورغم ذلك لم تــذكر كتب التــاريخ والفــرق أن المعتزلة كــان يــدور في خلدهم تنحية الشريعة الإسلامية.

لكن المعتزلة الجــدد يــرون تنحية الشــريعة وفصــلها عن الحكم بحجة تطوير الشريعة وأن هذا ما يستحسـنه العقل في عصرنا الحاضر!! إذن قضية التحسين والتقــبيح ليست ترفــاً فكريــاً أو جــدلاً أصــولياً، بل نحن بصــدد قضــية لها افرازاتها ونتائجها الملموسة على أرض الواقع.

ومن منطلق هذه التقدمة نتناول هذه القضية عبر النقــاط التالية:

أولاً: نبـــذة ســـريعة عن التحســـين العقلي والتقبيح.
ثانياً: موقف الطهطاوي من قدرة العقل على التحسين والتقبيح.
ثالثاً: تبـاين وجهة نظر الطهطـاوي في قضـية التحسين والتقبيح.
رابعـــاً: أثر الفكر الطهطـــاوي على أرض الواقع.

أولاً: نبذة سريعة عن التحسين العقلي والتقبيح :

يذكر علماء الأصول مسألة التحسين العقلي والتقـبيح في بـاب الحـاكم أي الـذي صـدر عنه الحكم وهو المشـرع الحكيم؛ الله سبحانه وتعالى حيث قال (إن الحكم إلا للـه) (ألاله الحكم والأمـر).. (وأن احكم بينهم بما أنـزل اللـه) والإجماع منعقد على أن الحاكم هو الله جل جلاله.

إلا أن العلمـاء اختلفـوا في مسـألة: هل المكلف مأخوذ بما يقضي به العقل أو هل يمكن للعقل أن يسـتقل بـإدراك أحكـام الله وإذا كـان كـذلك فهل يعد مصـدراً من مصادر الفقه الإسلامي؟ اختلف العلماء في هذه المسـألة على عدة أقوال:

القـول الأول: رأي المعتزلة والشـيعة الإماميـة: "إن الحسن والقبح صفتان ذاتيتـان لبعض الأشـياء، وإن أشـياء تتردد بين النفع والضـرر والخـير والشـر. وبهـذا يتحـرر أن المعتزلة يرون أن الأشياء أقسام ثلاثـة: أشـياء حسـنة في ذاتها لا يجوز إلا أن يأمر بها الله، وأشـياء قبيحة في ذاتهـا، وهذه لايجوز أن يأمر الله بها، وأشياء مترددة بين الأمـرين القـبيح والحسـن، وهـذا القسم يجـوز أن الأمر به والنهي عنـه، فـإن أمر به فهو حسن للأمـر، وإن نهى فهو قـبيح للنهي. وهـــذا تقرير مـــذهب المعتزلة وأساسه الحسن الـذاتي والقبح الـذاتي، وأن الحسن لذاته يكلف الشـخص القيـــام بـــه، وإن لم يعلم الشـــرع، والقـــبيح لذاته يكلف الشـخص أن يتجنبـه، ولو كـان يعلم نهي الشـارع عنـه" وترتب على هذا الرأي عدة أمور منها:

الأول: أن أهل الفـــترة ومن لم تبلغه دعـــوة الإســـلام أو دعـــوة الرسل مجزيـــزن على عـــدلهم محاســـبون على ظلمهم فهم مكلفـــون أن يفعلـــوا مـــاهو حسن لذاته وأن يمتنعوا عما هو قبيح لذاته حسب قول المتعزلة والإمامية.

الثاني: إذا لم يكن هناك نص فالنـاس مكلفـون بما يقضي به العقل في الحكم على الأشـــياء من حسن ذاتي أو قبح ذاتي.

القول الثـاني: الماتريدية وبعض الأصـوليين: وهو قول أبي منصـور محمد بن محمد الماتريـدي وهو مـذهب بعض الأحنـــــاف وبعض الأصـــــوليين وفريق من الإمامية وغيرهم. "يقولون إن للأشياء حسناً ذاتياً وقبحاً ذاتياً، وأن الله تعالى لا يأمر بما هو قبيح في ذاتـــه، ولا ينهى عن أمر هو حسن في ذاتـــه، وهم يقســـمون الأشـــياء إلى حسن

لذاتـه، وقـبيح لذاتـه، وما هو بينهما تـابع لأمر الله تعـالى ونهيه، وهو ذات التقسيم الـذي قـرره الجبـائي المعـتزلي. وفي هــذا القــدر يتفق الماتردية والحنفية مع المعتزلــة، لكنهم يختلفــون بعد ذلك عنهم، فالحنفية لا يــرون أنه لا تكليف ولا ثــواب بحكم العقل المجــرد، بل إن الأمر في التكليف والثواب والعقاب إلى النص والحمل عليه، فليس للعقل المجـرد أن ينفـرد بتقرير الأحكـام في غـير موضع النص، بل لا بد أن يرجع إلى النص أو يحمل عليه بـــــأي طريق من طرق الحمـل، بالقيـاس أو المصـلحة المعتـبرة المشـابهة، لما جـاء بـالنص، وهـذا هو الإستحسـان. وفي الجملة لابد من الرجــــــوع إلى النص في الجملة فليس للعقل المجرد قدرة على التكليـف، والحكم على الأشـياء، بل لابد من الإستعانة بالشـرع" وتـرتب على ذلك أن حكم الله لابد أن يـدرك بواسـطة الرسل ومن ثم فلا حكم في أفعال العباد بدون هذه الواسطة إذن فلا ثـواب ولا عقـاب حيث لاتكليف.

القـــول الثــــالث: رأي الأشــــاعرة وجمهــــور الأصوليين: "فهم يرون أن الأشياء ليس لها حسن ذاتي، ولاقبح ذاتي. وأن الأمــــور كلها اضــــافية، وإن إرادة الله تعــالى في الشــرع مطلقة لا يقيــدها شــئ، فهو خــالق الأشـياء، وهو خـالق الحسن والقـبيح، فـأوامره هي الـتي تحسن وتقبح ولا تكليف بالعقــــل، إنما التكليف بــــأوامر الشارع، ولا عبرة بأوامر العقل، إنما العـبرة دائمـاً بـأوامر الشــارع الحكيم. وبــذلك خــالفوا الماتريدية والمعتزلــة، فقـرروا أنه لاوجـود لحسن ذاتي أو قبح ذاتي ولاتكليف إلا من الشــارع" وتــرتب على ذلك أن أهل الفــترة ومن لم تبلغهم دعــوة الرسل لايجب عليهم شئ ولا يحــرم عليهم فعـل، حيث لاحكم لله في أفعـال العبـاد قبل بعثة الرسل ومن ثم فلا تكليف ولاحساب ولامدح ولاثواب ولاعقاب.

وهناك توضيح لشيخ الإسلام ابن تيمية حول هـذه القضـية حيث ذكر في مجمـوع الفتـاوى: "النـوع الأول: أن يكـون العقل مشــتملاً على مصــلحة أو مفســدة ولو لم يــأت الشرع بذلك.
كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة، والظلم يشـتمل على فســادهم. فهــذا النــوع هو حسن وقــبيح، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك؛ لا أنه أثبت للعقل صفة لم تكن، لكن لا يلزم من حصول هذا القبح أن يكـون فاعله معاقبـاً عليه في الآخرة. النوع الثـاني: أن الشـارع إذا أمر بشـيئ

ليمتحن العبد، هل يطيعه أم يعصيه؟ إلا أن يكون المراد فعل المأمور به، كما أمر إبراهيم (عليه السلام) بذبح إبنه، فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به".

وهذا قول نفيس للعلامة الشوكاني: "الكلام في هذا البحث يطول، وإنكار مجرد ادراك العقل لكون الفعل حسناً أو قبيحاً مكابرة ومباهتة، وأما إدراكه لكون الفعل الحسن متعلقاً للثواب، أو كون الفعل القبيح متعلقاً للعقاب فغير مسلم، وغاية ما تدركه العقول أن هذا الفعل الحسن يمدح فاعله، وهذا الفعل القبيح يذم فاعله، ولا تلازم بين هذا، وبين كونه متعلقاً للثواب والعقاب"

القول المختار في قضية التحسين والتقبيح:

وهو القول الثاني قول الماتريدية وبعض الحنفية وبعض الأصوليين وقول ابن تيمية والشوكاني: "هو الرأي الراجح المؤيد بالكتاب والسنة وبالعقل، أما الكتاب ففيه آيات كثيرة تدل على أن الله إنما يأمر بما هو حسن وينهى عما هو قبيح، والحسن والقبح ثابتان للأفعال قبل الأمر والنهي، ومنها قوله تعالى: (إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) وقوله تعالى: (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) فما أمر به الشارع من عدل وإحسان ومعروف، وما نهاهم عنه من فحشاء ومنكر وبغي، وما أحل لهم من طيبات وما حرم عليهم من خبائث، كل هذه الأوصاف الحسنة أو القبيحة: كانت ثابتة للأفعال قبل ورود حكم الشرع فيها، مما يدل على أن للأفعال حسناً وقبحاً ذاتيين.

والعقل يدرك حسن بعض الأفعال وقبح البعض الآخر بالضرورة: كحسن العدل والصدق، وقبح الظلم والكذب، ولكن حكم الله لا يعرف إلا عن طريق الرسول، فما لم يأت رسول يبلغ الناس حكم الله، فلا يثبت في أفعال الناس حكم بالإيجاب أو التحريم بدليل قوله تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) فلا عذاب قبل بعثة الرسول أو بلوغ الدعوة، وحيث لا عذاب فلا تكليف، وحيث لا تكليف فلا حكم لله في أفعال العباد على وجه طلب الفعل أو التخيير بينهما".

ثانيـــاً: موقف الطهطـــاوي من قـــدرة العقل على التحسين والتقبيح:

يقول الطهطـاوي: "إن العقل هو الفيصل في كل الأمـور" ويقول في موطن آخر: "وأما ما وهبه الله تعالى للإنســان خاصة، في حياته المعنوية وصفاته العقلية التي يعــبر عنها في تعريفه بالناطقية. فقد وهبه الله تعـالى الـدماغ الـذي هو مجلس الحواس الباطنية والقوى العقلية الـتي هي آلة الفكر وأداة النظـر، وإن شـئت قلت الناطقيـة، أي الجـزء الناطق من الإنسان وهو الروح البشـرية الـتي هي عبـارة عن الفكر والإرادة، فبالإدراك يقتـدر أن يـرتب المقـدمات لإسـتخراج النتـائج، وأن ينسب الماضي للحـال، ويتصـرف في عواقب المسـتقبل، ويتصـور أسـباب الظـواهر الجوية والحوادث السماوية، ويميز الحسن من القبيح والضار من النافع" .

ويمدح الطهطاوي ما أفرزته العقول الفرنسية من قوانين قـــائلاً: "والقـــانون الـــذي يمشي عليه الفرنســـاوية الآن ويتخذونه أساسـاً لسياسـتهم، هو القـانون الـذي ألفه لهم ملكهم المسمى "لويز الثامن عشر" ولايزال متبعاً عندهم ومرضـياً لهم وفيه أمـورلاينكر ذوو العقـول أنها من بـاب العدل. وإن كـان غـالب مافيه ليس في كتـاب الله وسـنة رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، لتعـرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصـاف من أسـباب تعمـير الممالك وراحة العباد، وكيف انقـادت الحكـام والرعايا لـذلك حـتى عمرت بلادهم، وكثرت معارفهم، وتراكم غناهم، وارتـاحت قلوبهم" .

وبذلك مهد الطهطاوي من حيث يدري أو من حيث لايدري لقبـول التشـريع الوضـعي الـذي يسـتند إلى العقل على قصوره وعلى مخالطة الشهوات له" .

ويوضح الطهطـاوي فكرته قـائلاً: "وقد أكـرم الله سـبحانه وتعالى الإنسـان، وخلق له ما في سـائر الكـون من سـائر المنـافع، وزينه بالعقل الـذي يمـيز به بين الحسن والقـبيح والضار والنـافع والخطأ والصـواب" نلاحظ أن الطهطـاوي أطلق العنـــان للعقل وقدرته على التحســـين والتقـــبيح بصرف النظر عن قيد الشرع!! ورغم هـذه الثقة المطلقة في قـدرة العقل على التحسـين والتقـبيح، نـراه يتنـاقض وهذه الثقة المفرطة!

وهذا ما سنوضحه في الفقرة التالية.

ثالثاً: تباين واضطراب رأي الطهطاوي في قضية التحسين والتقبيح:

يقول الطهطاوي في كتابه (المرشد الأمين): "لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه وتعالى، وإنما ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه وتقبيحه" ، "ولايسوغ لمتولي أن يحكم في التحريم والتحليل بما يلائم مزاجه فما يخالف الأوضاع الشرعية المنقولة عن الأئمة المجتهدين، ولاعبرة بالإستكراه النفساني والإستحسان الطبيعي والأخذ بالرأي من غير دليل، بل يعتمد متولي الأحكام على فتاوى العلماء وأقوال المجتهدين في الدين، فإن الإمامة تخلف النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا" ، "وأما السلطنة الرسمية على الرعية فهي لاتكون إلا في البلاد التي تكون قوانينها محض سياسة وضعية بشرية، لأن قوانين هذه الممالك تبيح اختلاط الرجال بالنساء بناء على قانون الحرية المؤسس عليه تمدن تلك البلاد وإلا فتمدن الممالك الإسلامية مؤسس على التحليل والتحريم الشرعيين بدون مدخل للعقل تحسيناً وتقبيحاً في ذلك حيث لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع" ، "فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى، فلا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسيناً وتقبيحاً، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود يتعدى الحدود، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطريق الشرع، لا بطرق العقول المجردة" .
تأمل! تجد الطهطاوي هنا يناقض نفسه في قدرة العقل على التحسين والتقبيح!

فهل تراجع الطهطاوي عن رأيه السابق؟ هذا ما سنوضحه في خاتمة هذا الفصل.

رابعاً: أثر الفكر الطهطاوي على أرض الواقع:

(أ) تنحية الشريعة الإسلامية: يقـول الطهطـاوي في كتابه منــاهج الألبــاب "ثم إن الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الأقضـية والأحكـام على وفق معـاملات العصـر، بما حـدث فيها من المتفرعـات الكثـيرة المتنوعة بتنـوع الأخذ والإعطــاء من الأنــام".. كانا هــذه أول تصــريح بتنحية الشــريعة الإســلامية والأخذ من قـــوانين غربية وبداية التشريع بغير ما أنزل الله!

(ب): تحسينه لسلوك وآداب أهل الفرنجـة: يقـول الطهطاوي محسناً مادحـاً أهل الفرنجـة: "ولاينكر منصف أن بلاد الفــرنج الآن في غاية البراعة والعلــوم الحكمية وأعلاها في التبحــر. من ذلك بلاد الإنجلــيز والفرنســيس والنمســا، فــإن حكماءها فــاقوا الحكمــاء المتقــدمين. وفلســفتهم أخلص من فلســفة المتقــدمين، كما أنهم يقيمــون الأدلة على وجــود الله تعــالى وبقايا الأرواح والثواب والعقاب. وإذا رأيت سياستها (أي باريس) علمت كمـال راحة الغربـاء فيها وحظهم وانبسـاطهم مع أهلهـا، فالغالب على أهلها البشاشة في وجـوه الغربـاء ومراعـاة خـاطرهم، ولو اختلف الـدين، وذلك لأن أكـثر أهل هـذه المدينة إنما له من دين النصـرانية الإسم فقـط، حـتى لا يتبع دينه، ولا غـيرة له عليـه، بل هو من الفـرق المحسـنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولـون إن كل عمل يـأذن فيه العقل صـواب، فـإذا ذكــرت له دين الإسلام في مقابلة غيره من الأديان أثنى على سائرها من حيث إنها كلها تــأمر بــالمعروف وتنهى عن المنكــر، وإذا ذكــرت له في مقابلة العلـوم الطبيعيــة. وبالجملة إنه لا يصدق بشئ مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية. وبالجملة ففي بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الأديان، فلا يعارض مسلم في بنائه مسـجد ولايهـودي في بنائه بيعة إلى آخره".

ويقول الطهطاوي محسناً ومادحاً لأهل باريس: "ظهر لي بعد التأمل في آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسـية أنهم أقرب شبهاً بـالعرب منهم للـترك ولغـيرهم من الأجنـاس، وأقـوى مظنة العـرب بـأمور العـرض والحرية والإفتخـار، ويسمون العرض شرفاً، ويقسمون به عند المهمــات، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه، ووفوا بعهودهم، ولا شك أن العــرض عند العرب العرباء أهم صفات الإنسان".
ويقــول أيضــاً: "اعلم أن البــارزيين يختصــون من بين النصــارى بــذكاء العقل ودقة الفهم وغــوص ذهنهم في العويصات، وليسوا مثل النصـارى القبط في أنهم يميلـون

بالطبيعة إلى الجهل والغفلة، وليسوا أسـراء التقليد أصـلاً، بل يحبون معرفة أصل الشئ والإستدلال عليه".

ويمتـدح نسـاء بـاريس وعفتهن!: "وحيث إن كثـيراً ما يقع السؤال عن حالة النسـاء عند الإفـرنج كشـفنا عن حـالهن الغطاء. وملخص ذلك أيضـاً وقـوع اللخبطة بالنسـبة لعفة النسـاء لا يـأتي من كشـفهن أو سـترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسـة، والتعـود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك في المحبة، والالتئام بين الـزوجين، وقد جـرب في بلاد فرانسا أن العفة تستولي على قلـوب النسـاء المنسـوبات إلى الرتبة الوسـطى من النـاس دون نساء الأعيان والرعاع؛ فنساء هاتين المرتبتين يقع عنـدهن الشبهة كثيراً ويتهمون في الغالب".

أقول: هكذا تستمر التحسينات الطهطاوية لعلـوم وآداب وسـلوك وأخلاق أهل الفرنجـة!! حـتى العـرض والشـرف فهم والعرب سواء إن لم يكونوا أكثر غيرة وحمية للعرض والشـــرف من العـــرب كما هو واضح في ثنايا خطابه وأنفس كلماتـه!! فليس للعـرب والمسـلمين إلا الجهل والتخلـف!! فالطهطـاوي ينـبري مـدافعاً عن اتهـام نسـاء الفرنجة بعدم العفة! ويدافع عن حياض فرنسا ويـذب عن نساء باريس العفيفات الغافلات!!

ولعل الطهطـاوي أراد أن يـرد على المـؤرخ العلامة عبد الـرحمن الجـبرتي الـذي عاصر الحملة الفرنسـية منذ احتلالها مصر إلى وقت خروجها منها حيث صور لنا الحيـاة الإجتماعية والتحلل الخلقي الـــذي ظهر في شـــوارع المحروسة على أيـدي الفرنسـيس (أهل العلـوم والآداب والخلق القويم!!) .

ونحن بدورنا سننقل قول الجبرتي بنفس اللهجة المصـرية الـتي كتب بها مؤلفه المـاتع (عجـائب الآثـار) حيث يقـول: "ومنها تبرج النساء وخروج غـالبهن عن الحشـمة والحيـاء وهو أنه لما حضر الفرنسـيس إلى مصر ومع البعض منهم نسـاؤهم كـانوا يمشـون في الشـوارع مع نسـائهم وهن حاسـرات الوجـوه لابسـات الفسـتانات والمناديل الحرير الملونة ويسـدلن على منـاكبهن الطـرح الكشـميري والمزركشـات المصـبوغة ويـركبن الخيـول والحمـير ويسـوقونها سـوقاً عنيفـاً مع الضـحك والقهقهة ومداعبة المكارية وحـرافيش العامـة، فمـالت إليهم نفـوس أهل الأهـواء من النسـاء الأسـافل. فلما وقعت الفتنة الأخـيرة

بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر. ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في غي جوار الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهن لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن لو شتمته أو ضربته...فطرحن الحشمة والوقار والإعتبار".

أقول: تأمل! هذا ما فعله الفرنسيس (أهل العلم والأدب والعرض والشرف!!) في نسائنا وبناتنا ومجتمعاتنا الإسلامية! فشهادة الجبرتي الذي عاصر احتلال جيوش نابليون لأرض مصر لم تعجب الطهطاوي!! فكأنه يوجه رسالة للجبرتي أنا قد سافرت إلى فرنسا وخالطت القوم ودخلت بيوت أهل باريس ومسارحهم وحتى مراقصهم، فلم أجد إلا الوقار والحشمة والعلم!!

لذلك لاغرو أن يثني طابور العلمانيين على هجوم نابليون واحتلاله لمصر لأنه جاء بحملة عسكرية حررت المرأة من رق الإسلام!! وأخرجت المرأة من قفص الحريم!!

فهذا لويس عوض يقول: "هذه المقارنة التي يعقدها رفاعة الطهطاوي بين الرقص الإفرنجي والرقص الشرقي مقارنة مهمة، لأنه تحمل فيها مسئولية التنديد برقص الغوازي ورقص العوالم في مصر ووسمه بالإنحطاط والشهوانية بينما رفع رقص الإفرنجي إلى مرتبة الرياضة والفن الجميل، فهو بهذا يقول لنا إننا أقرب إلى الفسق في لهونا من الأوروبيين. وهذا عكس الفكرة التي صورها الجبرتي عن المجتمع الفرنسي والمصري المختلط الذي رآه يحتفل بالرقص والغناء في عيد وفاء النيل رجاله مع نسائه".

ويقول أبو حمدان: "والجدير ذكره أن هذا الجدل (أي السفور) وأيضاً الإنتفاضات النسوية التي تحدثنا عنها، وجدت أرضاً خصبة لها بعد الحملة الفرنسية على مصر، حيث شاهدت المرأة المصرية وبأم العين مدى الحرية التي تتمتع بها المرأة الفرنسية من التبجيل الذي تحاط من قبل الرجل".

ويلخص الكـاتب المـذكور مادحـاً فكـرة الطهطـاوي عن المرأة: "وليس ثمة من دليل أقوى على التخلف والتـبرير من تلك المجتمعـات (يقصد المجتمعـات الإسـلامية) الـتي تحجب عن المـرأة حقوقها وتمنعها من ممارسة حريتهـا. هـذه هي باختصـار شـديد الفكـرة الـتي تبناها رفاعة الطهطـاوي حينما كـان يـدعو إلى تحـرر المـرأة المصـرية أولاً والمرأة العربية الإسلامية ثانياً".
ونحن بدورنا نحاول أن نلقي الضوء على وضع المـرأة في المنظومة الغربية، تلك المـرأة الـتي يبشر بها الطهطـاوي العالم الإسلامي!

نظرة رجال الدين المسيحي إلى المرأة: "لقد هال رجال المسيحية الأوائل ما رأوا في المجتمع الروماني من انتشـار الفـواحش والمنكـرات، و ما آل إليه المجتمع من انحلال أخلاقي شنيع. فـاعتبروا المـرأة مسـؤولة عن هـذا كله، لأنها كـانت تخـرج إلى المجتمعـات، وتتمتع بما تشـاء من اللهو وتختلط بمن تشاء من الرجال كما تشاء فقرروا أن الـزواج دنس يجب الإبتعـاد عنه وأن العـزب عند الله أكرم من المتزوج، وأعلنوا أنها باب الشـيطان، وأنها يجب أن تسـتحي من جمالها لأنه سـلاح إبليس للفتنة والإغـراء. قال القديس (ترتوليـان): إنها مـدخل الشـيطان إلى نفس الإنسان، ناقضة لنواميس الله، مشوهة لصورة الله (حاشا لله) أي الرجل!! وقال القـديس (سوسـتام): إنها شر لابد منـه، وآفة مرغـوب فيها وخطر على الأسـرة والـبيت، ومحبوبة فتاكـة، ومصـيبة مطلية مموهـة. وفي القـرن الخـامس اجتمع مجمع (مـاكون) للبحث في المسـألة التالية: هل المـرأة مجـرد جسم لا روح فيـه؟ أم لها روح؟ وأخـيراً قـرروا أنها خلو من الـروح الناجية (من عـذاب جهنم) ما عـدا أم المسـيح. ولما دخلت أمم الغـرب في المسيحية كانت آراء رجـال الـدين قد أثـرت في نظـرتهم للمـرأة، فعقد الفرنسـيون في عـام 586 للميلاد (أي في أيام شباب النـبي عليه الصلاة والسلام) مـؤتمراً للبحث: هل تعد المرأة إنساناً أم غير إنسـان؟ وأخـيراً قـرروا أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب".

هـذا عن رجـال الـدين المسـيحي قـديما أما في القـرون الوسـطى: "واسـتمر احتقـار الغربـيين للمـرأة وحرمـانهم لحقوقها طيلة القرون الوسـطى حـتى إن عهد الفروسـية الـذي كـان يظن فيه أن المـرأة احتلت شـيئاً من المكانة الإجتماعية حيث كان الفرسان يتغزلـون بها ويرفعـون من شـأنها، لم يكن عهد خـير لها بالنسـبة لوضـعها القـانوني

والإجتمـــاعي. فقد ظلت تعتـــبر قاصـــرة لاحق لها في التصـــــرف بأموالها دون إذن زوجهـــــا. والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الإزدراء، يـــروى فيهـــا: أن الملكة (بلانشـــفلور) ذهبت إلى قرينها الملك (بيبـين) تسـأله معونة أهل اللـورين. فأصـغى إليها الملك، ثم استشـاط غضـباً، ولطمها على أنفها بجمع يـده فسـقطت منها أربع قطـرات من الـدم وصـاحت تقـول: شكراً لك. إن أرضاك هـذا فـأعطني منيدك لطمة أخـرى حين تشاء. ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمـات على هـذا النحو كثـيراً ما تتكـرر، كأنها صـيغة محفوظـة. وكأنما اللطمة بقبضة اليد جـــزاء كل أمـــرأة جســـرت في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة!!".

أما عن وضع المـرأة في عصر النهضة الصـناعية في أوروبا: "ولقد تقدم الزمن في الغـرب من العصـور المظلمـة، إلى عصـور الفروسـية، إلى مابعـدها من طلائع العهد الحـديث، ولما تـبرح المـرأة في منزلة مسـفة، لا تفضل ما كـانت عليه في الجاهلية العربيـة، وقد تفضـلها منزلة المـرأة في تلك الجاهليـة. ففي سـنة 1790 بيعت امـرأة في أسـواق انجلـترا بشـلنين لأنها ثقلت بتكـاليف معيشتها على الكنيسة التي كـانت تؤويهـا. وبقيت المـرأة إلى ســــــنة 1882 محرومة من حقها الكامل في ملك العقار وحرية المقاضاة.. وكـان تعلم المـرأة سـبة تشـمئز منها النساء قبل الرجـال فلما (الياصـابات بلاكويـل) تتعلم في جامعة جنيف سنة 1849 ـ وهي أول طبيبة في العالم ـــ كـانت النسـوة المقيمـات معها يقاطعنهـا، ويـأبين أن يكلمنها، ويزوين ذيـولهن من طريقها احتقـاراً لهـا، كـأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسـها. ولما اجتهد بعضـهم في اقامة معهد يعلم النســـاء الطب بمدينة (فلادلفيـــا) الأمريكية، أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصـادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشـير أولئك الأطبـــاء... ومن الطريف أن نـــذكر أن القـــانون الإنجلـيزي حـتى عـام 1805 كـان يـبيح للرجل أن يـبيع زوجته، وقد حدد ثمن الزوجة بستة بنسات. فقد حـدث أن بـاع انجلـيزي زوجته عـام 1931 بخمسـمائة جنيـه. وقـال محاميه في الـدفاع عنـه: إن القـانون الإنجلـيزي قبل مائة عـام كـان يـبيح للـزوج أن يـبيع زوجتـه، وكـان القـانون الإنجلـيزي عـام 1801 يحـدد ثمن الزوجة بسـتة بنسـات بشـرط أن يتم الـبيع بموافقة الزوجـة. فأجـابت المحكمة بـأن هـذا القـانون قد ألغي عـام 1805 بقـانون يمنع بيع الزوجات أو التنازل عنهن، وبعد المداولة حكمت المحكمة

على بائع زوجته بالسجن عشـرة أشهر.!! وقد حـدث أن باع ايطالي زوجته لآخر على أقساط، فلما امتنع المشتري عن سداد الأقساط الأخيرة قتله الزوج البائع. ولما قـامت الثـورة الفرنسـية (نهاية القـرن الثـامن عشـر) وأعلنت تحرير الإنسـان من العبودية والمهانـة، لم تشـمل بحنوها المرأة، فنص القـانون المـدني الفرنسي على أنها ليست أهلاً للتعاقد دون رضا وليها إن كـانت غـير متزوجـة، وقد جـاء النص على أن القاصـرين هم: الصـبي، والمجنـون، والمرأة!!. واستمر ذلك حتى عام 1938 حيث عدلت هذه النصوص لمصلحة المرأة، ولاتـزال، فيه بعض القيـود على تصرفات المرأة المتزوجة".

أقـول: هكـذا كـان وضع المـرأة في فرنسا وفي أوروبا حـتى بعد وفـاة الطهطـاوي بسـبعين سـنة!! فـإذا كـان الطهطاوي يريد أن يحـرر المـرأة المسـلمة على الطريقة الغربية فكان أولى به وهو في باريس أن يطـالبهم بتحرير المـرأة الفرنسـية والأوروبية من رق العبودية للرجـل!! فحتى بعد إلغاء انجلترا لقـانون بيع الزوجـات عـام 1805 ظل حـال النسـاء في الغـرب مزريـاً إلى نهاية الحـرب العالمية الثانية عام 1945 فأي بشارة هـذه الـتي يبشـرنا بها الطهطاوي وتلامذته؟!!

لقد كان وضع المرأة المسـلمة بالمقارنة بـالمرأة الأوربية في عصر الطهطـاوي وما قبله وما بعـده أفضل بمراحل ولامقارنة البتة بين وضع المرأة المسلمة الـتي كرمها الله في كتابه العزيز وأكرمتها السـنة النبوية أحسن تكـريم وبين المرأة الأوروبية التي يتحكم في حالتها مجموعة من العاهات العقلية والعقد النفسية التي أصـابت رجل الـدين المسـيحي الـذي أثر على المجتمع الأوروبي عـدة قـرون برسم صـورة نمطية للمـرأة تلك الكـائن الشـرير وذلكم الـرجس الـذي يجب الإبتعـاد عنه واجتنابه على حد زعمهم!!

أم ماذا يريد الطهطاوي من تقليد المرأة المسلمة للمـرأة الأوروبيـة؟! هل يريد أن تجاريها في العـري والسـفور والإبتذال؟!! هل هذا هو تحرير المرأة أم تدميرها؟!

لقد أثمرت دعوة الطهطاوي فبعد خمسين عاما من وفـاة الطهطاوي ألف قاسم أمين المتوفى 1908 كتاب (تحرير المـرأة).. وظهـرت حمى التقليد الأعمى للمـرأة الغربيـة: فهذه صفية مصطفى فهمي (التي تنسب إلى زوجها سعد

زغلول على الطريقة الغربية) تقوم بشبه مسـرحية هزلية مسـتغلة ثـورة الشـعب ضد الإحتلال الإنجلـيزي فتقـوم بتظـاهرة من النسـوة تحت قيادتها وتجمع النسـوة أمـام ثكنـات الإنجلـيز في قصر النيل بالقـاهرة (وهو ميـدان الإسـماعيلية، فبعد هـذه الواقعة غـيروا اسـمه إلى ميـدان التحرير احتفـالاً بتظـاهرة هـؤلاء النسـوة)، ويهتفن ضد الإحتلال.. ثم يخلعن الحجاب، ويلقينه في الأرض، ويسكبن عليه الكيروسـين، ويشـعلن فيه النـار.. ويحيا تحرير المرأة!!

لكن ماعلاقة الإحتلال الإنجلـيزي ومقاومته بخلع الحجـاب؟!! رغم أنهن خـرجن لابسـات الحجـاب ضـمن طوائف المجتمع الـتي خـرجت في ثـورة 1919م.. أكـاد أشك أن هناك أمراً دبر بليـل!! فـإذا كنت تريـدين التحـرر فلم التمحك في الرجل - حسب تعبـير الأسـتاذ محمد قطب - وتنسبين نفسك إليه وتتركين اسم أبيك؟!

أقول: ولايزال هذا التقليد الغربي معمـولاً به وخاصة في بيوتات ذوي الياقات البيضاء وما يمسى بعلية القوم!! الله يكـرم الإنسـان: (ادعـوهم لآبـائهم).. ويصر الإنسـان أن ينسب إلى غـير أبيـه!! فكـأنهم يحرفـون الآية (ادعـوهم لأزواجهم)!! فمـاذا يريد هـؤلاء الطهطـاويون من المـرأة المسـلمة: إسـلامها كرمها أعظم تكـريم؛ ذمتها المالية منفصـلة عن ذمة زوجهـا، لاتبـاع ولاتشـترى، هي حـرة بتحرير الإسـلام لها فهي الأم والأخت والبنت والزوجة والمربية والشـاعرة والفقيهة والعابـدة والمستشـارة.. فماذا (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)..

وكـان من ثمـرات الفكر الطهطـاوي أنه "عنـدما أصـدر قاسم أمين كتابه تحرير المـرأة، قاطعه النـاس وحـرم الكبراء عليه دخول بيوتهم، وأفتى بعض العلمـاء أنه خـرج عن الإسلام، وكـان أحمد لطفي السـيد من القلائل الـذين وقفوا إلى جانب قاسم أمين، وقـال لطفي السـيد يومهـا: (إنه لن تمر على مصر أكثر من خمسين عامـاً إلا وتكـون المـرأة المصـرية وزيـرة) وسـمع الخـديوي عبـاس لهـذا الرأي، فقال: (إن لطفي السيد قد جن وأنه يحسن وضعه في السراي الصفراء) والسراي الصـفراء هو الإسم الـذي كان يطلق على مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية.

وقبل أن تمضي خمسـون عامـاً على هـذا الحـديث كـانت المرأة المصرية تثبت بالفعل وزيرة للشـئون الإجتماعيـة"

وكان من ثمرات الفكر الطهطاوي ظهور جيل من النسـاء اللائي تفرنجن وفضلن السفور على الحجاب منهن الكاتبة الشـهيرة (باحثة الباديـة) واسـمها ملك ناصف ابنة الشـيخ حفـني ناصف بـك، ولـدت بالقـاهرة سـنة 1886م وتلقت مبـــادئ العلـــوم في مـــدارس أولية ثم دخلت المدرسة السـنية فنـالت الشـهادة الإبتدائية في سـنة 1900م ثم نـالت إجـازة التـدريس من قسم المعلمـات ومارست التعليم في مـدارس البنـات الأميريـة، وتـوفيت 1918م، وكانت من الداعيات إلى السفور بعد قاسم أمين، وكـانت تفضل السـفور على الحجـاب ولها كتـاب (النسـائيات) وكـانت تكتب مقـالات في تنـاهض الحجـاب ورغم ذلك حافظ إبراهيم بقصيدة منشورة في ديوانه سنة 1918م.

وجـاءت نبوية موسى (1890 ـــ 1951) وسـارت على نفس الـدرب فكـانت أول نـاظرة وأول مفتشة في وزارة المعـارف المصرية ولها كتابـات عن المـرأة وتحريرهـا!! ولها كتابات أيضاً عن تاريخ الفراعنة وتمجيـدها للشخصـية المصرية بغض النظر عن الدين!! هكذا تـولى الطهطـاوي كبر سفور المرأة المسـلمة تحت شـعار (تحرير المـرأة!) وسار على دربه العلمانيون الجدد الذي لم تعجبهم شـهادة الجبرتي فغمزوا ولمزوا وهمزوا في هذا المـؤرخ الأمين!! وعظموا وبجلـوا وشـرفوا وكرمـوا الطهطـاوي ومن سـار على نهجه لأنه فتح بـاب الطعن على مبـادئ الإسـلام وقيمه، فطفقوا يعربـدون في مقدسـات الإسـلام ولا رادع لهم!!

(ج): استحسـانه الغنـاء والتمثيل والـرقص: قـال الطهطـاوي محسـناً الغنـاء: "قـال بعض الحكمـاء: فضل الغناء كفضل النطق على الخرس والدينار المنقـوش على القطعة من الـذهب، وفي بعض كلامهم: إن الغنـاء يحـرك الهـوى السـاكن ويسـكن ألم الهـوى المتحـرك. قـال أفلاطـون: هـذا العلم، يعـني علم الموسـيقى. لم يضـعه الحكماء للهو واللعب، بل للمنافع الذاتية، ولذة الروحانيـة، وبسط النفس، وتـرطيب اليبوسـات، وتعـديل السـوداء، وترويق الـدم، وقـال بعضـهم: سـميت الأنغـام والألحـان بالغناء لأن النفس تسـتغني به عن الملاذ البدنية في حـال سـماعه"، "فمن مجـالس الملاهي عنـدهم محـال تسـمى (التيـاتر) و(السـكاتاكل) وهي يلعب فيها تقليد سـائر ما وقـع، وفي الحقيقة إن هـذه الألعـاب هي جد في صـورة هـزل، فـإن الإنسـان يأخذ منها عـبراً عجيبـة، وذلك فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة، ومـدح الأولى، وذم الثانية

حـتى إن الفرنسـاوية يقولـون إنها تـؤدب أخلاق الإنسـان وتهذبه"، "ومن المتنزهات محال الرقص المسماة (البال)، وفيه الغنـاء والـرقص، وقـلّ إن دخلت في بيت من بيـوت الأكابر إلا وقد سمعت به الموسيقى والمغـنى، ولقد مكثنا لانفهم لغنائهم معنى أصلاً لعدم معرفتنا بلسانهم".

أقـول: نتسـاءل بـدورنا: لمـاذا ذهبت إلى هـذه الملاهي وهذه المسارح وأماكن اللهو والعبث أيها الشـيخ الأزهـري الوقـور؟! وما الـداعي لـدخولك بيـوت الأكـابر والأسـافل لتشـــاركهم في طـــربهم وغنـــائهم ورقصـــهم؟! وما هي الأعمال الصالحة التي يتعلمها مرتادوالملاهي بعد جرعـات السـموم من رقص وتمثيل وخلاعـة؟! هل نسي أو تناسى الشيخ الطهطاوي أنه رجل أزهري يعلم حرمة التردد على هذه الأماكن؟! ألم يعلم الشيخ رفاعة أن خلطته وجلوسه لأهل الفن واللهو والطـرب خـارم من خـوارم المـروءة؟! أكاد أجزم أنه يعلم ذلك جيداً.

ويحـــدثنا فضـــيلة الشـــيخ رفاعة الطهطـــاوي عن فوائد الـــرقص: "وقد قلنا إن الـــرقص عنـــدهم من الفنـــون وقد أشار إليه المسعودي في تاريخه (مروج الذهب) فهو نظير المصـــارعة في موازنة الأعضـــاء ودفع قـــوى بعضـــها إلى بعض. فليس كل قـــوي يعـــرف المصـــارعة، بل قد يغلبه ضـعيف البنية بواسـطة الحيل المقـررة عنـدهم، وما كل راقص يقـدر على دقـائق حركـات الأعضـاء، وظهر لي أن الـرقص والمصـارعة وجعلهما شئ واحد يعـرف بالتأمـل، ويتعلق بـــالرقص في فرنسا كل النـــاس وكأنه نـــوع من العيافة والشلبنة، لا من الفسـق، فلـذلك كـان دائمـاً غـير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الـرقص في أرض مصر لا يشم منه رائحة العهر أبداً، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها، فإذا فرغ الراقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا، وســـواء كـــان يعرفها أولاً أم لا، وتفـــرح النســـاء بكـــثرة الراغبين في الرقص معهن، ولايكفيهن واحد ولا اثنـان، بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقصن معهن لسآمة أنفسهن بالتعلق بشئ واحد".

ويسترسل الشـــيخ رفاعة شـــارحاً بروتوكـــولات وقواعد الـــرقص وآدابه وأصـــوله: "وقد يقع من الـــرقص رقصة مخصوصة يـرقص الإنسـان ويـده في خاصـرة من تـرقص معـــه، وأغلب الأوقـــات يمســـكها بيـــده، وبالجملة فمس المرأة أيـاً ما كـانت في الجهة العليا من البـدن غـير عيب

عند هؤلاء النصارى، وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الأدب".

أقـول: هـذه بشـارة لأهل الخلاعة والفسـاد فقد جـاءهم الشـيخ رفاعة الطهطـاوي بـالرقص!! فليهنأ الراقصـون والراقصات وأهل الفن والطرب فإنهم أبطـال المصـارعة الحـرة!! لقد حسّـن الطهطـاوي لهم الفن الرفيع ومنحهم الصك الشرعي بالإباحة فلا ضير عليهم فليرقصوا وليرتعوا وليفسـدوا فكل شئ مبـاح!! تأمـل! هـذا السـخف الـذي وضعه فضيلة الشيخ الأزهري في كتبه! تأمل هذه الدعوى الخبيثة التي تدعو إلى محاكاة الغـرب حـتى في فجـورهم وفسادهم! هذه دعوى بكل وضـوح وصـراحة للإختلاط بين الرجال والنساء حيث الرقص والتفسخ الخلقي! وحيث إن الطهطاوي يعلم أن دعواه مرفوضة لدى العالم الإسـلامي وستقابل بالسخط والإستنكار حتى من عوام الناس، نـراه يستشهد بالمؤرخ المسعودي صاحب كتاب مروج الـذهب، وكأنه يخوفنا بمروج الـذهبي وبالمسـعودي لأن لديه أثـارة من علم بخصوص الرقص! إذن فـالرقص مـدون في كتب التاريخ وشبهه المسعودي بالمصارعة!!

ولنا رد على هــذه الجزئية نختصــره في النقــاط التاليـــة: لم يقل المســـعودي هـــذا النص الـــذي نقله الطهطـــاوي بل إن أقـــرب حكاية ذكرها المســـعودي عن الرقص وردت في المجلد الرابع من مروج الـذهب: "فلما كان صبيحة تلك الليلة دعا الخليفة المعتمد من حضره في اليوم الأول، فلما أخذوا مـراتبهم من المجلس قـال لبعض من حضره من ندمائه ومغنيه؛ صف لي الـرقص وأنواعـه، والصفة المحمودة من الراقص واذكر لي شمائله".

وبعد التحقيق لم نجد النص الـذي ذكـره الطهطـاوي في مروج الذهب. ورغم ذلك فـإن المسـعودي ذكر أشـنع من الـرقص في حق الصـحابة وخلفـاء المسـلمين من تهم وأباطيل لطالما يتخـذها العلمـانيون وأهل الأهـواء تكـأة للنيل من الإسلام والمسلمين.

إن الحكايـات التاريخية ليست من المسـتندات الشـرعية التي تبنى عليها الأحكام، وهذا معلوم في كتب الأصول.

أما المسعودي المؤرخ وأماته العلميـة: يقـول عنه أبو بكر بن العـربي: "ومن أشد شئ على النـاس جاهل عاقـل، أو مبتـــدع حتـــال، فأما الجاهل (..) وأما المبتـــدع المحتـــال

فالمسعودي، فإنه يـأتي منه متاخمة الإلحـاد فيما روى من ذلـــك، وأما البدعة فلاشك فيـــه، فـــإذا صـــنتم أســـماعكم وأبصاركم عن مطالعة الباطل، ولم تسـمعوا في خليفة ما ينسب إليه ما لايليق ويـــذكره عنه ما لايجـــوز نقلـــه، كنتم على منهج السلف سائرين، وعن سبيل الباطل ناكبين".

ويقـــــول فيه الشـــــيخ محب الـــــدين محقق العواصم من القواصم: "على بن الحسين المسعودي يعده الشـيعة من شيوخهم وكبارهم، ويذكر له المامقاني في تنقيح المقال (2 :ـ 282 -ـ 283) مؤلفات في الوصاية وعصـمة الإمـام وغـير ذلك مما يكشف عن عصـبيته والتزامه غـير سـبيل الســـنة المحمديـــة. ومن طبيعة التشـــيع والتحـــزب البعد بصاحبه عن الإعتدال والإنصاف".

وكان من ثمرات الفكر الطهطاوي أن التمثيل والغنـاء في عهد الخـديو إسـماعيل صـار مرعيـاً من جـانب الدولـة: " ولما كـان إسـماعيل باشا نفســه.. ميـالاً بطبيعته للفنـون الجميلة وفي طليعتها الموسيقى والغناء لم يكن غريبـاً أن يشتهر عصره بـالمرح والحبـور وأن ينمو الفن في عهـده. ولما كانت النهضة التمثيلية في النصف الثـاني من القـرن الغـــابر مـــاتزال في بـــدايتها فقد راح إســـماعيل يســـاعد الجـــــانب الأوربي منه آملاً في أن يـــــؤدي ذلك إلى نهضة التمثيل في مصر. وفي الحق إنه لم يستكثر أية مســاعدة على المســرح المصــري ولــذا أنشأ في القــاهرة مســرح الكوميـدي بالأزبكية وقد شـرع في بنائه في نوفمـبر سـنة 1866 واحتفل بافتتاحه في 3 ينـاير 1868 ثم دار الأوبـرا في سـنة 1869 لمناسـبة حفلات افتتـاح قنـاة السـويس. وتم بنـاء الأوبـرا في خمسة أشهر ومثلت فيها في مسـاء 29 نوفمـــبر ســـنة 1866 أول أوبـــرا واســـمها (يجوليتـــو) شـــــهدتها الأمـــــبراطورة أوجيـــــني عقيلة نـــــابليون الثـــــالث وأعجبت بهـــا. ولم يفت إســـماعيل أن يعهد للموســـيقى الإيطـالي (فـردي) بـأن يضع أوبـرا مصـرية وضع العلامة مـــاربيت باشا موضـــوعها وهي روايى (عايـــدة) وقد مثلت فعلاً في القاهرة لأول مرة في 24 ديسمبر سنة 1871م ومنذ ذلك الحين أخـــذت الحكومة تجلب الفـــرق الفـــرق الأجنبية وتغدق عليها المال. أما في الإســكندرية فقد أنشأ الخديو مسرح (زيزينا) ومسرحاً آخر اسمه (الفييري)!!".

وكان الخديو إسماعيل يقرب المغنين وأهل الطرب فكـان عبده الحامولي المتوفى سـنة 1901م من نـدماء الخـديو ومن المقربين إليه وكان الخديو يصحب هـذا المغـني معه

في رحلاته واستصحبه معه إلى الآستانة.. وظهرت في عصر الخديو أيضاً راقصات وعوالم ومغنيات مثل (ألماس) التي يناديها العامة بألماظ كانت زوجاً لعبده الحامولي!! وهناك مغن يهودي من أهالي الإسكندرية اسمه (جاك رومانو) كان صديقاً لعبده الحامولي مدحه حافظ إبراهيم وأشاد ببراعته في الغناء في قصيدته التي نشرها في 15 نوفمبر 1908م.

وانظر إلى قول حافظ واسرافه في المدح المخالف للشرع:

ارحمونا بني اليهود كفاكم	ما جمعتم بحذقكم من نقودِ
واصفحوا عن عقولنا ودعوا الخلـ	ـقَ بسرِّ التوراة والتلمودِ
لاتزيدوا على الصكوك فخاخاً	من غناءٍ ما بين دفٍ وعودِ
ويحكم إنّ (جاك) أسرفَ	حتى زادَ في قومه على داودِ
أسكتوه لا أسكتَ الله ذلك الـ	ـصوتَ صوتَ المتيّم الغرِيّدِ
أوْ دعوه فداؤه إن تغنّى كلُّ	نفسٍ وكلُّ ما في الوجودِ

وقال في هذا الجاك أيضاً:

يا (جاكُ) إنك في زمانك واحدٌ	ولكلِّ عصرٍ واحدٌ لا يُلحَقُ
إن الأولى عاصروك وفاتهم أنْ	يسمعوك كأنّهم لم يخلقوا
قد جاء (موسى) بالعصا وأتيتنا	بالعود يشدو في يديك وينطقُ
فإذا ارتجلت لنا الغناء فكلنا	مُهجٌ تسيلُ وأنفسٌ تتحرقُ

أقول: هكذا يستمر حافظ إبراهيم بك شاعر النيل في مبالغاته وذكره لأنبياء الله لدرجة أن هذا الجاك اليهودي من حلاوة صوته زاد على حسن صوت نبي الله داود عليه السلام!! ليس هذا فحسب بل فكما جاء نبي الله موسى عليه السلام بمعجزة العصا جاء هذا (الجاك) بآلة العود ليطرب أهل هذا الزمان!! فبئس التشبيه وبئست

المقارنة!! فمقام أنبيـاء الله أسـمى وأرفع من أن تـدنس أسماؤهم في مثل هذه الأبيات وصدق الله تعالى إذ يقـول (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولـون ما لا يفعلـون).. وظهر في عصر إسـماعيل أيضاً رجل يعتبرونه سلطان العازفين على آلة القـانون !! اسمه (محمد العقاد القانونجي)..

وهكذا صار سفلة القـوم علية النـاس وانقلت المـوازين واختلت المعادلات وأصبح للراقصـين والمغـنين والعـوالم حماية من جـانب الجولة وقـويت شـوكتهم على مـرور الزمان وصارت لهم دولة تسـمى دولة الفنـانيين يقـربهم الحكام المتسلطون ليخدروا الأمة بأغانيهم وممسرحياتهم وأفلامهم ومن ثم يتغافل النـاس عن هـزائم الحـاكم وجبروته وظلمه للبلاد والعباد!!

أقول: لقد منح الطهطاوي ثقته الكاملة في قـدرة العقل على التحسين والتقبيح مثلما رأت المعتزلة قديماً غير أنه يفوق المعتزلة الأوائل بأطروحاته الغريبة حيث لم يتطرق المعتزلة لتنحية الشـريعة الإسـلامية ولم يـدر في أدمغتهم ذلـك، رغم أنهم فتحـوا بـاب هـذه الفتنة للمعتزلة الجـدد واللادينين أيضاً.

أما الطهطـاوي تجـاوز الثـوابت المقدسـة!! لكن الملاحظ أن الطهطاوي سحب ثقته المطلقة في قـدرة العقل على التحسين والتقبيح بمعنى أنه رجع إلى أشعريته الأزهرية؟! لأن الأزهر ومعظم العالم الإسـلامي في تلك الفـترة كـان على مذهب الأشاعرة! لكن بماذا نفسر هذا التناقض لدى الطهطاوي؟

قد يقـول قائـل: الرجل غـير رأيه فلمـاذا تحاكموه؟!!

أقـول: إن الطهطـاوي لم يـتراجع كما يفهم من آرائه المتناقضـة، فلو أنه قـال رأيه في كتابه الأول تخليص الإبريز ثم تراجع في آخر مؤلفاته منـاهج الألبـاب؛ لقلنا إن الرجل غير رأيه في آخر حياته. لكن الأمر الذي لامراء فيه أن الطهطاوي لم يتراجع ولم يغير رأيه؛ فحالة الإضطراب الـتي انتـابت الرجل هي الـتي أوقعته في مثل هـذه التناقضـات. فالرجل متنـاقض في المؤلف الواحد ففي صدر الكتاب تراه يبدي رأياً ثم في نفس الكتـاب يتنـاقض مع رأيه السـابق!! فالطهطـاوي كـان يمثل مرحلة انتقالية

(مرحلة الإنسلاخ من الإسلام) والتسربل بدين جديد اسمه (العلمانية)!!

وقد فسر الـدكتور عمـارة محقق الأعمـال الكامل هـذه الإزدواجية وهـذا الإضـطراب قـائلاً: "إنه لم يـدخل معركة فكرية ضد النمط اللاعقلاني الذي كـان سـائداً في الدولة العثمانية ـ عصر المماليك والأتراك العثمانية ـ وأيضاً كـون الرجل في هـذا الحقل يمثل مرحلة الإنتقـال، وهي أمـور وعوامل أثقلت من خطاه على هذا الـدرب، ولم تثقل من خطا الذين جاءوا من بعده، فكانوا امتداداً متطـوراً لكثـير من الأفكار التي قدمها هذا الرائد العملاق للإنسان العربي في مطلع عهد هـــذا الإنســـان بحركة البعث والنهضة والإحياء".

أقــول: هكــذا يــرر أحد المــولعين بــالفكر الإعــتزالي اضــطراب وتنــاقض الطهطــاوي في قــدرة العقل على التحســين والتقــبيح؟! وما هي الآثــار المترتبة على هــذا التراجع؟!

أو بمعنى آخر: هل تراجع الطهطاوي عن تحسيناته العقلية للأنموذج الغـربي المسـتورد ومدحه للمجـالس التشـريعية التي تشرع بغير ما أنزل الله وتحسـينه لسن قـوانين على غـــرار المنظومة الغربيـــة؟!! هل تراجع الطهطـــاوي عن تحسينه للرقص والغناء والتمثيل والموسيقى؟! هل تراجع عن تسحينه لتقييد تعدد الزوجات؟ هل تراجع عن تحسـينه لخروج المرأة ومزاحمتها للرجال في ميادين الحيـاة الـتي أدت إلى ضـياع المــرأة وضـياع مجتمعاتنــا؟!! هل تراجع الطهطـــاوي عن عدائه للخلافة العثمانية ومدحه لحـــاكم مصر محمد علي باشا وهو يحارب أتبـاع الشـيخ محمد بن عبد الوهـــاب رحمه اللـــه؟! هل تراجع الطهطـــاوي عن تحســـينه لتـــاريخ الفراعنة وإثارته للنعـــرة المصـــرية الفرعونية؟!!

زبــدة القــول: لم يــتراجع الشــيخ رفاعة ولم يتب عن أطروحاته في كتبه المـذكورة، ومن ثم كـانت أفكـاره هي اللبنات الأولى للعلمانية العربية الحديثة.

الفصل الرابع
الطهطاوي وإحياء نعرات الجاهلية وإحلال ولاء الوطن محل الدين والعقيدة

لأول مـرة في تـاريخ المسـلمين تظهر كتابـات تتكلم عن الوطنية وللمواطن والتغني بـالوطن على حسـاب الـدين. لأول مـرة في تـاريخ الإسـلام تحل رابطة الأرض والعـرق والدم والقرابة محل الرابطة الدينية الإيمانيـة، ولما كـانت القضـية الوطنية تحتـاج إلى سـياج يحميهـا، نبش دعــاة التغـريب في تـاريخ ما قبل الإسـلام، من تـاريخ الفراعنة والفينيقيين وبابل آشور...إلخ.

لقد تكلم الطهطـاوي عن تـاريخ الفراعنة بفخر واعـتزاز بغية تأكيد مفهوم الولاء والبراء على أساس الأرض والـدم

والقرابـــة، فتمجيد تـــاريخ ما قبل الإســـلام كـــان لتأكيد مصطلحات الجاهلية الجديدة (الوطن/المواطن/الوطنية).

كـانت هــذه تقدمة لما ســنتناوله في هــذا الفصل الــذي خصصناه لمناقشة هذه القضية التي تكلم الطهطاوي عنها في مؤلفاته وتعليقنا على آرائه المطروحة والمبثوثة في كتبه.

أولاً: الطهطـــاوي ومفهـــوم الـــوطن والوطنية:

يعرف الطهطاوي الـوطن بأنـه: "عش الإنسـان الـذي فيه درج، ومنه خـرج ومجمع أسـرته، ومقطع سـرته وهو البلد الذي نشأته تربته وغـذاؤه وهـواؤه، وربّـاه نسـيمه، وحلت عنه التمائم فيه".

ويقـول عن (حقـــوق المـــواطن) : "ثم إن ابن الـــوطن المتأصل به، أو المنتجع إليه، الذي توطن به واتخذه وطناً، ينسب إليه، تـارة إلى اسـمه فيقـال: مصـري مثلاً، أو إلى الأهل فيقال: أهلي، أو إلى الوطن فيقال: وطني، ومعـنى ذاك أنه يتمتع بحقوق بلـده، وأعظم هـذه الحقـوق الحرية التامة في الجمعية التأنسـية، ولا يتصف الوطــني بوصف الحرية إلا إذا كـان منقـاداً لقـانون الـوطن ومعينـاً على اجرائه، فانقياده لأصول بلده يستلزم ضـمناً ضـمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية، والتمزي بالمزايا البلدية، فبهذا المعـنى هو وطـني وبلـدي، يعـني أنه معـدود عضـواً من أعضاء المدينـة، فهو لها بمنزلة أحد أعضـاء البـدن، وهـذه أعظم المزايا عند الأمم المتمدنة. وقد كـان أهـالي غـالب الأمم محـــرومين من تلك المزيـــة، الـــتي هي من أعظم المناقب".

ويتحدث عن واجبات الوطن: "فالوطني المخلص في حب الـوطن يفـدي وطنه بجميع منـافع نفسـه، ويخدمه ببـذل جميع ما يملك، ويفديه بروحه، ويـدفع عنه كل من تعـرض له بضرر كما يدفع الوالد عن ولده الشر، فينبغي أن تكون نية أبنـــاء الـــوطن دائمـــاً متوجهة في حق وطنهم إلى الفضـيلة والشـرف، ولا يرتكبـون شـيئاً مما يخل بحقـوق أوطانهم وإخوانهم، فيكـون ميلهم لما فيه النفع والصـلاح، كما أن الـوطن نفسه يحمي عن ابنه جميع ما يضـره، لما فيه هذه الصـفات، فحب الأوطـان وجلب المصـالح العامة

للإخــوان من الصـفات الجميلة الـتي تتمكن من كل واحد منهم محبوبـاً للآخـرين، فما أسـعد الإنسـان الـذي يميل بطبعه لإبعـاد الشر عن وطنه ولو بإضـرار نفسـه، فصـفة الوطنية لاتسـتدعي فقط أن يطلب الإنسـان حقوقه الواجبة له على الــوطن، بل يجب عليه أيضـاً أن يــؤدي الحقوق التي للوطن عليه للـوطن، فـإذا لم يـوف أحد من أبنـاء الـوطن بحقـوق وطنه ضـاعت حقوقه المدنية الـتي يستحقها على وطنه".

ويتكلم عن الأخوة في الـوطن: "الأخـوة الوطنيـة: فجميع ما يجب على المــؤمن لأخيه المــؤمن يجب على أعضــاء الـــوطن في حقـــوق بعضـــهم على بعض، لما بينهم من الإخوة الوطنية فضلاً عن الأخوة الدينيـة، فيجب أدبـاً لمن يجمعهم وطن واحد: التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن وإعظامه وغناءه وثروتـه، لأن الغـنى إنما يتحصل من انتظـام المعـاملات وتحصـيل المنــافع العموميـــة، وهي تكـــون بين أهل الـــوطن على السوية".

نلاحظ تبـــني الطهطـــاوي للمفهـــوم الأوروبي للتعريف بالوطن "للمرة الأولى في البيئة الإسلامية نجد كلامـاً عن الوطن والوطنية وحب الوطن بـالمعنى القـومي الحـديث في أوروبا، الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض، يراد اتخاذها وحدة وجوديـة، يرتبط تاريخها القـديم بتاريخها المعاصـر، فكوّنا وحـدة متكاملـة، ذات شخصـية مســتقلة، تميزها عن غيرها من بلاد المســلمين وغـــير المسـلمين. وللمـرة الأولى نجد اهتمامـاً بالتـاريخ القـديم يوجه لتدهيم هذا المفهوم الجديد للوطن".

وهذا سر اهتمام الطهطاوي بتاريخ ماقبل الإسـلام وهو ما سنوضحه في الفقرة التالية.

ثانيـــاً: تمجيد الطهطـــاوي لتـــاريخ الفراعنة:

تحت عنوان حضارة مصر القديمة يقول الطهطاوي: "فقد أجمع المؤرخـــون على أن مصر عظم تمـــدنها، وبلغ أهلها درجة علياً في الفنـون والمنـافع العموميـة، فكيف لا وإن آثـــار التمـــدن وأماراته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثة وأربعين قرنـــاً يشـــاهدها الـــوارد والمـــتردد، ويعجب من

حسنها الوافد والمتفرج، مع تنوعها كل التنوع، وسـلاطينها هي من أقوى دلائل العظمة الملوكية. وفيها بيت فرعـون، وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الأخضر، وكان لها سبعون باباً، وهي مدينة المملكة المصـــرية، وكـــانت منـــازل الملـــوك من القبط الأولى والعمـاليق ومسـكن الفراعنـة، ومـازال الملك بها إلى أن ملك الــروم اليونــان ديـار مصـر، فانتقل كرسي المملكة منها إلى الإسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة إلى أن جـاء الإسـلام، ثم خـربت، وفيها كـانت الأنهـار تجـري من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار".

ويستمر الطهطاوي في مدح الفراعنـة: "والمصـريون من قـديم الزمـان كـانوا منقـادين للحكم الملـوكي، فكـانوا مطيعين لملكهم، وكـــان الملك منقـــاداً أيضـــاً لقـــوانين المملكة وأصولها، وكانت حكماء مصر تذكر الملوك دائمـاً بـــالحقوق والواجبـــات، وتحثهم على التمسك بالفضـــائل الملوكية، وتعلن من يصرفهم عنها من بطانة السوء وأهل النفـــاق، وكـــانت الملـــوك في تلك الأوقـــات يشـــتغلون بمطالعة الحكم والآداب والمواعــــظ، والتــــواريخ، وكل مايرشد إلى العدل والإستقامة. وكانت مصر منقسمة إلى عمـالات (أي محافظـــات) وعلى كل عمالة حــاكم فهــذا التقســيم قــوى شــوكة أمنــاء الــدين وجعلهم مختصــين بممارسة العلوم، وبتقنين القوانين الملكية، وبنفوذ الكلمة في الحكومة "، " وأما الديانة عن المصريين فكانت أيضـاً مرتبة إذ كـان أمنـاء دينهم يعتقـدون ألوهية الـذات العليـا، وكان لهم أسـرار عجيبـة، فكـانوا لايظهرونها إلا لقليل من الناس، وكان عامة الناس يعبـدون الأوثـان، ومنشأ عبادتها عندهم أنهم كانوا يؤلهـون كل من اخـترع أمـراً غريبـاً من قـــانون أو علم أو فن، فكـــانوا متقـــدمين في الهندسة والمساحة والآلات الهندسية كعلم الجغرافيا والنجوم ".

ويقول في مدح قوانين الفراعنة: "وكـانت قـوانينهم تميل إلى الحث على العمـــل، فقطع عـــرق البطالة والغش والتـــدليس، وغـــير ذلك من الموبقـــات، فمن هـــذا يفهم تقـدمهم في التمـدن، وأن مملكتهم في الأزمـان السـالفة كانت عادلة محترسة مستنيرة بالمعارف".

وفي تعليقه على قصة نبي الله يوسف عليه السلام يقول مادحـاً قـانون الفرعـون: "ويسـتدل بهـذا أيضـاً على أن قـوانين معاملة الخـدم والرقيق كـانت عادلة لايسـوغ فيها للسيد الذي أساءه عبده كل الإساءة أن ينتقم منه لنفسه،

كما يحب ويختـــار، فهــذا يفيد أن الملة كــانت متمدنـــة". ويضيف أيضاً : " فمنه يعلم أنه كـان بمصر إذ ذاك أحكـام عادلة وحـدود مشـروعة خالية من الأغـراض والنفسـيات وهي نتيجة التمدن التام".

أقول: لكن لماذا سجن نبي الله يوسف عليه السـلام إذا كانت أحكـامهم عادلـة؟! ألم يقل عزيز مصر وحاكمها لما تأكد من بـراءة نـبي الله يوسف عليه السـلام كما يقـول القرآن الكـريم: (فلما رءا قميصه قد من دبر قـال إنه من كيـــدكن إنّ كيـــدكن عظيم. يوســـفُ أعـــرضْ عن هـــذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخـاطئين) فبعد أن تحقق حاكم مصر من صـدق يوسف عليه السـلام وكـذب زوجته يقـول لزوجته (إنه من كيـدكن).. (إن كيـدكن عظيم).. ثم يقـول للـبرئ آمـراً ليوسف عليه السـلام بكتمـان ما وقع (يوسف أعـرض عن هـذا).. ثم يقـول العزيز لزوجته بكل هدوء ولين شأن أصحاب القصور وأهل الحكم (اسـتغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين)..

ويتمـادى القـوم في غيهم وظلمهم ليوسف عليه السـلام فيضعونه في السجن بعدما رأوا الآيـات : (ثم بـدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين).. يقول الحافظ ابن كثير معلقاً على هذه الآية: (يقول تعـالى ثم ظهر لهم من المصـلحة فيما رأوه أنهم يسـجنونه إلى حين أي إلى مـدة وذلك بعد ما عرفــوا براءته وظهــرت الآيــات وهي الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته. وذكر السدي أنهم سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه فيفضحها).

ثم يأتي الطهطاوي بعد ذلك ليقول : "ويستدل بهـذا أيضـاً على أن قـــوانين معاملة الخـــدم والرقيق كــــانت عادلة لايسـوغ فيها للسـيد الـذي أسـاءه عبـده كل الإسـاءة أن ينتقم منه لنفســه، كما يحب ويختــار، فهـذا يفيد أن الملة كانت متمدنة"..

فأي عدل هذا وأي تمدن هذا الـذي يتكلم عنه الطهطـاوي والقوم قد سجنوا البرئ؟!!

ويقـول مادحـاً فرعـون مصر رمسـيس: "من المعلـوم أن من أسس في مملكة مصر الســـعادة والسياسة والأمنية وحفظ حقــوق الرعية هو الملك رمسـيس الــذي اشـتهر باسم سيزوسـتريس وهو الــذي شـيد في مصر القصــور الشامخة والهياكل السـامية المنافسة للأطـواد الراسـخة،

واتخذ ما يلزم للـوطن من الجسـور والقنـاطر والخلجـان، ولم يفـارق الـدنيا حـتى تـرك مصر على غاية من الـثروة والغـنى والسـعادة والهنا وكل إنسـان شـاكر لفعله وعلى تـداول الأزمـان لازال التـاريخ يثـني على شـمائله وجميل خصاله".

ويزيد في مــدح فرعــون مصــر: "فكــإن هــذا الملك في الحقيقة فخر الدولة المصــــرية في الأزمــــان الجاهلية ومصباح تاريخهـا، اعتـنى بتاريخه مؤرخو اليونـان، لأنه أول ملك مصري قربهم إلى بلاده، واستمال قلوبهم بتوظيفهم لرئاسة أجناده وخالف عوائد أسلافه، وعامل يونان وآســيا وأوروبا بــاخص اســتعطاف وأقطعهم الإقطاعــات من الأراضي المصري، و سوى في الحقوق بينهم وبين الجنود في الوطنية".

من خلال هــذا التصــور الجديد للــوطن والوطنية ضــرب الطهطــاوي أمثلة للأســوة والقــدوة من تــاريخ الفراعنة وتعظيمه لفرعون مصر (فخر الدولة المصرية في الأزمان الجاهلية ومصـباح تاريخهـا)!! فـأي فخر هـذا لملك يفـرط في أرضه ويدخل الأجـانب ويمنحهم هـذه الامتيـازات على حساب شعبه وأبناء جلدته!! فهذه دعـوى الجاهلية الأولى، ولســنا نتقــول على الرجل بل هــذه أقواله شــاهدة على آرائه الغريبة على عالمنا الإسلامي!!

فالطهطــاوي لم يكتف بتحســين التــاريخ الفرعــوني بل تمــادى في إطرائه لدرجة أنه مــدح ديانة الفراعنة كما ذكرنا آنفاً. تأمل! هذا الإحياء الجديد لهذه الرمم الـتي عفا عليها الزمن. إنها دعـوى للفرعونية وبعثها من جديد لتأكيد مفهــوم الــوطن والوطنية والعــودة إلى العصــبية للأرض والقرابة أي دعوة إلى عدم اعتبار رابطة الإسلام والإيمان الـتي دعا إليها القــرآن الكــريم (إنما المؤمنــون أخــوة) وتكمن خطــورة الطهطــاوي في كونه عالمــاً أزهريــاً يستشــهد بالآيــات القرآنية والأحــاديث النبوية وكثــير من أبيـات الشـعر، مما يسـهل مهمة تلـبيس الحق بالباطـل، وهذا نجده واضحاً في قولـه: "أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حين خـرج من مكـة، علا مطيتــه، واسـتقبل الكعبــة، وقــال: (والله لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لما خرجت".

أقول: هذا الحـنين إلى الـديار أمر فطـري لاجنـاح عليـه، ولايتنـاقض وعقيـدة الـولاء والـبراء في الإسـلام، لكنه في

حالة تعارض الـولاءات، فالرسـول صـلى الله عليه وسـلم قدم ولاء العقيـدة والإسـلام على ولاء الأرض رغم أن مكة خـــير بقـــاع الأرض، فهنا انتصر ولاء العقيـــدة على ولاء الــوطن، ومن قبل فعل نـبي الله إبــراهيم عليه السـلام عنـدما تعـارض ولاء الأبـوة والـرحم مع ولاء العقيـدة قـال تعالى: (فلما تبين له أنه عدو لله تـبرأ منـه) وقـال تعـالى: (قد كـانت لكم أسـوة حسـنة في إبـراهيم والـذين معه إذ قـالوا لقـومهم إنا بـرءاء منكم ومما تعبـدون من دون الله كفرنا بكم وبـدا بيننا وبينكم العـداوة والبغضـاء أبـداً حـتى تؤمنوا بالله وحده) وقد كـان هـذا منهج الصـحابة رضـوان الله عليهم؛ ففي غـزوة بـدر تبـاينت الـولاءات، وتمـايزت البراءات، فالمهاجرون يقاتلون آباءهم وأبناءهم وإخــوانهم وعشيرتهم من المشركين، وهم بنو وطن واحد، وعشـيرة واحدة، بل وعائلة واحدة، فهذا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يقتل أبــــاه، وعمر بن الخطــــاب رضي الله عنه يقتل خالــه، فانتصر ولاء العقيـدة على ولاء القرابة والـدم والأرض.

وهذا عبادة بن الصـامت رضي الله عنه الـذي كـان حليفـاً لليهود يعلن ولاءه لله ورسوله ويتبرأ من حلفائه من يهــود بني قينقاع الذين غدروا ونقضوا عهدهم إذ يعلن على الملأ براءته من حلفائه من يهود مظاهرة لله ورسوله قـائلاً: (يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسـوله من ولاية يهـود، وأتـولى الله ورسـوله). هكــذا عنــدما تعارضت مصـلحة العقيــدة مع المصــلحة الشخصية قدم عبـادة بن الصـامت ولاء العقيـدة وأسـقط تحت قدميه ولاء المصلحة الشخصية.

وقد أفاض القرآن الكريم في هذه القضية وركز على ولاء العقيدة والإيمان فقال تعالى: (ياأيها الذين آمنـوا لاتتخـذوا آبـاءكم وإخـوانكم أوليـاء إن اسـتحبوا الكفر على الإيمـان ومن يتــولهم منكم فأولئك هم الظــالمون) (ياأيها الــذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أوليـاء بعض. ومن يتـــولهم منكم فإنه منهم. إن الله لايهـــدي القـــوم الظالمين) .

لكن الطهطاوي يتغافل عن هذه الآيات البينات في عقيدة الولاء والبراءة ويضرب بها عرض الحائط ويضّيق المفهوم الواسع للــولاء والــبراء في العقيــدة الإســلامية وينــادى برابطة جديدة تحل محل رابطة الإسلام.

ولكي يفصل القرآن مبدأ (الـولاء) الـذي هو مبـدأ أساسي في سياسة الأمة الإسـلامي، ويـبرر أسـباب ما يـراه فيه فيقـول: (إنما وليكم الله ورسـوله والـذين آمنـوا الـذين يقيمون الصلاة ويؤتـون الزكـاة وهم راكعـون، ومن يتـول الله ورسوله والـذين آمنـوا فـإن حـزب الله هم الغـالبون) فالآية الأولى تحدد من يكون له الـولاء والمـودة. وهم الله ورسوله، والمؤمنون الذين يباشرون العبادة والطاعة للـه. والآية الثانية تعد بنجـاح التماسك في الأمة على أسـاس مثل هذا الولاء.

ثم يستطرد القـرآن مـبرراً لما حـدده هنا فيقـول: (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الـذين اتخـذوا دينكم هـزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفـار أوليـاء، واتقـوا الله إن كنتم مؤمـنين، وإذا نـاديتم إلى الصـلاة اتخـذوها هـزوا ولعباً ذلك بـأنهم قـوم لايعقلـون) فقد اعتـاد الفريقـان أن يسخرا من الصلاة عنـدما يـؤذن لهـا. وسـخريتهم من دين المؤمـنين على هـذا النحو يعـبر عن عـدم احـترامهم للمؤمنين. وليس من حسن السياسة أن يكونـوا هم وأهل الكتـاب والمشـركون على السـواء، موضـحاً: أن منع المؤمنين والمؤمنات من أن يكون لهم ولاء لغيرهم: يكون الإنسـان مواليـاً أو صـاحب ودّ وصـداقة لمن لايحترمـه، ولمن يسئ إليه فيما يعتقـده. وكما ينهى القـرآن عن أن يتجاوز المؤمنون والمؤمنات بـولائهم أو صـداقتهم وودهم: إخوانهم في الإيمان، إلى غـير المؤمـنين من أهل الكتـاب والمشركين ممن اعتادوا أو ممن شـأنهم أن يسـخروا من المؤمـنين ومن دينهم على السـواء، ينهي أيضـاً عن أن يتخذ المؤمنـون والمؤمنـات (خاصـة) و(مستشـارين) من غير المؤمنين، فيقول: (ياأيها الذين آمنـوا لا تتخـذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ماعنتم قد بـدت البغضـاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيـات إن كنتم تعقلـون. هـاأنتم أولاء تحبـونهم ولا يحبـونكم وتؤمنـون بالكتـاب كله وإذا لقـوكم قـالوا آمنا وإذا خلـوا عضـوا عليكم الأنامل من الغيـظ. قل موتـوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور. إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصـبكم سـيئةٌ يفرحـوا بها وإن تصـبروا وتتقـوا لايضـركم كيدهم شيئاً إن الله بما تعملون محيط) ، وإذا كان القرآن يبرر ما يدعوا إليه المؤمنين والمؤمنات من قبل: من عدم الـولاء لغـيرهم، بسـبب سـخرية هـؤلاء لـدين المؤمـنين واستهزائهم بما يؤدونه من عبادة، فإنه يـبرر دعوته الثانية إلى المؤمنين والمؤمنـات بعـدم اتخـاذ (بطانـة) و(خاصـة) و(مستشارين):

أ) بعدم تقصير هؤلاء من أهل الكتـاب والوثنـيين أو المــاديين الملحــدين - إذا ما أصــبحوا بطانة للمؤمــنين والمؤمنـات - فيما يسـبب الأزمـات والشر والفسـاد لهم (لايألونكم خبالاً).

ب) وبالرغبة في التفتيش عما يشق على نفوســهم، ويسبب لهم العنت: (ودوا ماعنتم).

ج) وبانطواء نفوسـهم على البغض والحقد (قد بـدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر).

د) وبالرغبة في الانتقــام منهم: (وإذا خلــوا عضــوا عليكم الأنامل من الغيظ).

هـ) وبأن نجـاح المؤمـنين يسـوؤهم.. بينما يسـعدهم اخفاقهم (إن تمسسكم حسنة تسـؤهم، وإن تصـبكم سيئة يفرحوا بها).

وقد بلــور القــرآن ما دعا إليه المؤمــنين والمؤمنــات من مواقف في سياســتهم مع غــيرهم على الأخص في قوله تعالى: (تلقـون إليهم بـالمودة وقد كفـروا بما جـاءكم من الحق) ، هم في واقع أمرهم أعداء للممؤمنين وأعـداء لله جل جلاله لأنهم جميعــاً يكفــرون بــالقرآن كــآخر رســالة سماوية.

وقد حذر القرآن المؤمـنين بعد أن كفر أعـداؤهم بما جـاء إليهم من الحق، وهو القرآن الكـريم: من أن يمـدوا إليهم يد الولاء والمودة.. أو أن يتخـذوا منهم خاصة وبطانة لهم. لأن نفوســــهم تنطــــوي على البغض والحقـــد، لأنهم إن صادقوكم وانفردوا بكم يكشـفوا لكم عن عـدوانهم وتمتد أيديهم إليكم بالسـوء، كما تمتد ألسـنتهم، ونهاية مطـافهم معكم: أن تعودوا كفاراً وتتحولوا إلى أن تكونوا أتباعاً لهم (إن يثقفـوكم يكونـوا لكم أعـداء، ويبسـطوا إليكم أيـديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون).
فهل يعي المؤمنــون سياسة القــرآن بالنســبة لأمتهم في تماسكهم.. وبالنسبة لأعدائهم في عدم مــوالاتهم، واتخــاذ بعضـهم خاصة لـه؟. ما أصـاب المسـلمين بـالأمس.. وما يصـيبهم اليـوم أو غـداً، هو بسـبب عـدم اتبـاعهم لسياسة القــرآن.. وبقــائهم مع حــزب الشــيطان فياتبــاع سياسة الهوى والشهوة.

من منطلق هذا المفهوم الجديد للوطن، أعلن الطهطاوي عــداءه للخلافة العثمانيــة، وتغــنى ببطــولات محمد علي باشا، وأشاد بانتصـاراته على العثمـانيين وفي ذلك يقـول: "وحروبه مع والي عكا معلومـــة، وجـــولان جنـــوده في

الشام، وغير الشـام مفهومـة، ولم تكن من محض العبث، ولا من ذميم تعدي الحـدود، إذ جل مقصـوده تنبيه أعضـاء ملة عظيمة تحسـبهم أيقاظـاً وهم رقـود، والـدليل على حسن النية أن هـذه الحسـنة الـتي على صـورة الجنيـة، أنتجت أصل وارثي مصر، الـتي تـرتب عليها رفع الإصـر"، "ولـولا بقـاؤه (يقصد محمد علي باشا) (ت 1849) تحت ولاء الدولة العلية، ومراعـاة حفظ الحالة الراهنة عليه من الراجحية والمرجوحيـــة، لجـــال في الفتوحـــات الخارجة مجال اسكندر الأكبر".

ويشـــيد محقق الأعمـــال الكاملة بهـــذا الفكر التقـــدمي! لرفاعة الطهطاوي فيقـول: "فهو هنا يقـدم فكـراً محـدداً يرى في العمل العسكري الـذي مارسه الجيش المصـري ضد العثمـانيين، وحـرر به أغلب أجـزاء المشـرق العـربي، عملاً لا يدخل في إطار (العبث) أو(التعدي) وإنما هو تنبيه الأمة وإيقاظها من نومها ورقودهـــــا، فيا للكهف المظلم للأتــراك العثمــانيين، هو فكر قــومي عــربي لانطلب من الطهطاوي أكثر منه في ذلك التاريخ وتلك الظروف".

وانتشـــرت عـــدوى الفكر الطهطـاوي في عقـــول أمتنـــا؛ فيقول أحدهم في معـرض مدحه لحـرب محمد علي باشا ضد الخلافة العثمانيـــة: "ونحن في نوفمـــبر 1831 ها هو محمد علي يرسل ابنه إبـــــــراهيم على رأس جيش إلى فلسطين، وهاهو الجيش يتقدم بسرعة من فلسطين إلى باقي أجزاء الشام ـ في تلك الفترة كان لفظ الشام يعني فلسطين ولبنان وسوريا".

ويقول مادحاً الفلاح المصـري: "الآن يتحـول الفلاح نفسه إلى مقاتل منظم في جيش حـــديث، يهـــزم الإمبراطوية التي حكمته من قبل ثلاثة قرون".

من منطلق المفهـــوم الجديد للـــوطن نـــادى الطهطـــاوي بتقعيد اللهجة العامية والاعتنـــاء بهـــا، وحقق مشـــروعه بتعريبه لصـحيفة (الوقـائع المصـرية) وتشـجيعه للكتابة العاميـة: "وموقف الطهطـاوي من اللهجة العامية جـدير بالتأمل والدراسة، فقد كـان الرجل يسـتخدم مصـطلحاتها عند الترجمة إذا أعـــوزه المصـــطلح الفصـــيح، ويقـــدم المصطلح العامي على المصـطلح المعـرب، كما اسـتخدم الكثـير من ألفاظها في تأليفـه.. وهو قد تحـدث عن أهمية تقعيد قواعدها والإستفادة منها في تعليم الصناعات لأبنـاء الشـــعب، فقـــال: إن اللغة المتداولة في بلـــدة من البلاد،

المســماة باللغة الدارجــة، الــتي يقع بها في المعــاملات السائرة، لامانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها، وأصـــول على حسب الإمكـــان تربطهـــا، ليتعارفها أهل الإقليم، حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم، وتصنف فيه كتب المنافع العمومية والمصالح البلدية".

وقد كـان الطهطـاوي عملياً فكتبه زاخـرة بهـذه الألفـاظ العامية.. ونلاحظ ذلك جيـداً في مجلة الوقـائع الـتي كـان يشـرف على تحريرها وتطـوير أسـلوبها حيث غلبت عليها العامية المصــرية.. وهكــذا سن الطهطــاوي ســنة الكتابة بالعامية المصــرية في الصــحف الــتي صــدرت في وقته وصــــار الخلف على نفس الســـنة الطهطاوية إلى وقتنا الحاضر.

أقـول: أود أن أشـير إلى أن هنـاك بعض المحـاولات قد جـــرت للكتابة بالعامية بعد الطهطـــاوي عن طريق نقل أعمـــال من الـــتراث العـــالمي أو من الأعمـــال الأدبية الكلاسيكسة كمســرحيات شكســبير إلى لهجتنا العاميــة: "مثل تجربة محمد عثمـــان جلال لتعـــريب أعمـــال من الـتراث الكلاسـيكي الفرنسي للقـرن السـادس عشـر. إذ قـــام في نهاية القـــرن التاسع عشر بنقل مســـرحيات المؤلف الكوميـدي موليـير إلى العامية المصـرية؛ فـترجم أربع مسرحيات هي (تـاتوف) وقـام يتعريبها بما يتلاءم مع البيئة الثقافية والإجتماعية المصـــرية، وأعطائها عنـــوان (الشـيخ متلـوف) وكـذلك مسـرحية (النسـاء العـاملات) ومسرحيات أخرى من هذا التراث الفكاهي السـاخر. ولم تقف تجربة محمد عثمـــان جلال عند تعـــريب الـــتراث الكلاســيكي الكوميــدي، بل أقــدم على ترجمة وتعــريب مســـرحيات (راســـين) التراجيديـــة، وجـــاءت الترجمة لمسرحية (ايستير) و (ايفيجيني) كذلك في صـورة أشـعار زجليـة. وفي نفس هـذه الفـترة شـرع (وليـام ولكـوكس) بترجمة مقتطفات من روايـتي (هـنري الرابـع) و (هملت) لشكســبير إلى العامية المصــرية ونشــرها عــام 1893م ولكن في أغلب الظن لم يكن ولكـوكس يفكر في نقل ما كان يقدمه إلى خشـبة المسـرح، بل كـان هدفه الأساسي هو تعضيد رأيه أن العامية هي أداة التعبير التي يجب على المصريين تبنيها والكتابة بها لجميع أغراض الإتصال".

وتعتــبر جريــدة (أبو نضــارة) أول صــحيفة هزلية تكتب بالعامية تنتقد حكم الخــديو إســماعيل المتــوفى 1879، وهـذه الجريـدة أسسـها جمـال الـدين الأفغـاني المتـوفى

1897م الـذي يلقب برائد اليقظة في الشـرق! وتجـاوب معه يعقـوب صـنوع والشـيخ محمد عبـده في تحرير هـذه الجريــدة. وانتشــرت الكتابة بالعامية على نطــاق واسع وهناك محاولات مسـتميتة لإقصـاء اللغة العربية من حيـاة الناطقين بها.
لكن الفصحى لم تزل والحمد لله تشغل وظائف الإتصـال الأكـثر رسـمية كتابية كـانت أو شـفهية، ولم تـزل هنـاك مجـالات عملية لاتسـتخدم إلا الفصـحى كالخطابة وحـتى الكتابة الإدارية ونقل المعلومات العلمية ووسائل الإتصـال الحديثة التي تنقل هذه المعلومات لا تترجم إلا بالفصــحى وطالما كـان القـرآن حيـاً لم يرفع من صـدور النـاس بعد فلن تموت الفصحى مهما حاول أعداؤها الـذين يتسـترون بالعامية القضاء عليها!!

أما عن العلاقة بين الوطنية وتمجيد ماقبل الإسلام:

لقد كـان من لـوازم مفهـوم الوطنية أن نبش الطهطـاوي في تــاريخ ما قبل الإســلام وإحيــاءه نعــرات الجاهلية كالفرعونية، واعتبارها امتداداً طبيعياً لتاريخ المصريين مع الحض على تعظيمها، مما أدى فيما بعد إلى إحياء طقوس حرمها الإســلام وأبطلتها الشــريعة الإســلامية الغــراء كالإحتفـال بيـوم وفـاء النيل وتقـديس الحجـارة والمقـابر الفرعونية.

وكــان من ثمــرة ذلك الفكر من الناحية التطبيقية انشــاء مدرسة اللســان المصــري القــديم (اللغة الهيروغليفيــة) وكان ذلك عام 1879م وكان مـديرها الألمـاني (بـروكش باشــا) ومنها تخــرج أحمد كمــال باشا المولــود 1851 والمتوفي 1923م وهو أول مصري حمل لـواء علم الآثـار الفرعونية القديمة وأول مصـري يتقن هـذا الفن الحـديث فهو العربي المصري الأول الذي تلقى هذا العلم من أثري الغرب وعربه وأقـام له فلسـفة واضـحة. وله موسـوعات وأبحاث في قواعد اللغة الهيروغليفية وقاموس بمفرداتها. وقد استطاع هذا الرجل أن يحمل الحكومة المصرية على تعليم اللسان المصري لبعض الطلبة المصريين وقد تخرج على يديه مجموعة من أزكي تلاميذ مدرسة المعلمين: مثل سـليم حسن عـالم الآثـار المشـهور المتـوفى سـنة 1961م وسليم حسن هو مكتشف أول مقـبرة في الدولة الفرعونية القديمة وهي مقــبرة (رع ور) الكــاهن الأكــبر للــوجهين البحــري والقبلي. وهو مكتشف الهــرم الرابع

للجـيزة وصـاحبته هي الملكة (خنت كـاوس) أول مصـرية تحمل لقب الملوكية كما يقولون!!
ومحمـود حمـزة ورمسـيس شـافعي وغـيرهم من علمـاء الآثار المصريين. ومع ظهور كشـوف مقـبرة الملك (تـوت عنخ آمــون) عــام 1922م تفــرعنت الصــحف المصــرية وظهرت الـدعوة إلى احيـاء طـابع الفرعونية في المجتمع المصري.

وقد كان الإهتمام بهذه الحفريـات والكشـوفات بغية خلق تيار التشرذم والتجزئة في المنطقة، والقضاء على وحـدة الأمة حيث سيهتم كل قطر بنفسه ويتقوقع داخل حضارته القديمة فيمجد المصـــريون الفرعونيـــة، واللبنـــانيون الفينيقيــة، والعراقيــون الآشــورية وهكــذا تحل ولاءات الجاهلية محل رابطة العقيدة والدين.
هكـذا "نشـأت فكـرة الوطنية وقتـذاك، فكـرة تحـاول أن تجمع الناس حول المطالبة بحقوقهم، ودعــوة إلى الحرية وإلى هـدم صـرح الظلم والإسـتعباد. ثم تطـورت الفكـرة على أيــدي أصـحاب الثقافة الأوروبيــة، وبــدأت تهــاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصــــدر شر وتفرقة بين أبنــــاء الجنس الواحــد. فــدعا هــذا لفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسـكون بالرابطة الدينيـة، ويعتبرونها خطـراً يهــدد وحــدة الأقطــار الإســلامية ويفــرق كلمتها ويهــدم تعاطفها ويضعف تكتلها، بما يعرضها للسقوط تحت أقدام الدول الأوروبية الطامعة، واحدة تلو أخرى".

مما لاشك فيه أن هذه الأفكار (اتخـاذ الـوطن معبـوداً من دون الله) وإجلاله في الشعر والأناشيد محل الــدين، وقد ظهر ذلك جلياً في قصـائد زوج ابنته - صـالح مجـدي بك - الذي سـار على منهج أسـتاذه الطهطـاوي وحامل أفكـاره والمدافع عنه..

وكما يقول د. محمد حسين: "وربما كان صالح مجدي من أســبق الشــعراء في العصر الحــديث إلى ترديد كلمــات الـــــوطن والوطنية في شــــعره بعد أســــتاذه رفاعة الطهطــاوي. وله في آخر ديوانه خمس عشــرة مزدوجة سـماها (الوطنيـات)، امتـدح فيها سـعيد باشا والي مصـر، وعرضت عليه فــــأمر بتلحينها والتغــــني بها بمصــــاحبة الموسـيقى العسـكرية في المحافل والمواسـم. وهو في هذه الوطنيات يشيد بـالوطن محـاولاً أن يغـرس حبه في القلـوب، ويتغـنى بأمجـاد الأجـداد، ويفـاخر بجيش البلاد مبرزاً قوته، معتداً بشدة بأسه. ولكنه يربط ذلك شخصـياً

بشخص سعيد، ويجعله سبباً للتعظيم من شأنه وتحبيبه إلى أبناء جنسه، فمن ذلك قوله في الوطنية: فامتداح الصدر غنوا فهو للأوطان حصن وهو للإيمان ركن ولكم في الحتوف أمن في ميادين الوقائع في الوغى أنتم أسود يا بني الأوطان سودوا ولها بالروح جودوا وادخلوا الأحياء وصيدوا يا بني الأوطان هيا خيموا فوق الثريا واهجروا النوم مليا واطعنوا الضد الأبيا واجدعوا أنف الممانع"، "من الواضح أن الصياغة ليست هي التي تلفت النظر في شعر صالح مجدي. فهو قليل الحظ من هذه الناحية، لا يقارن بشاعر كالبارودي. لكن الذي يلفت النظر في شعره هو هذا الوضوح المبكر للفكرة الوطنية، التي تعتز بمصر وجيش مصر، وتمتلئ حماساً للحرب والقتال في سبيل مجد الوطن ورفعته" .

لقد سار على هذا النهج شاعر النيل حافظ إبراهيم المتوفى 1932 إذ يقول في قصيدته التي نشرت في 15/12/1921م وهذه القصيدة على لسان مصر تتحدث بنفسها:

وقف الخلق ينظرون جميعاً … كيف أبني قواعد المجد وحي

وبناةُ الأهرام في سالف الدهـ … ـر كفوني الكلام عند التحدي

أنا تاج العلاء في مفرق الشرق … ودرَّاته فرائدُ عقدي

قل لمن أنكروا مفاخر قومي … مثل ما أنكروا مآثر وُلدي

هل وقفتُمْ بقمّة الهرم الأكْـ … ـبر يوماً فرَيْتُمُ بعضَ جُهْدي

هل رأيتم تلك النقوشَ اللّواتي … أعجزتْ طَوْقَ صنعة التحدي

حال لون النهار قديم العهـ … ـد وما مسّ لونَها طولُ عهدي

هل فهمتم أسرار ما كان عندي … من علومٍ مخبوءةٍ طيّ بَرْدي

ذاك فن التحنيط قد غلب الدهـ … ـر وأبلى البلى وأعجز ندّي

قد عقدتُ العهودَ من عهد فرعو … ن ففي مصر كان أولُ عقد

إنّ مجدي في الأوليات عريقٌ … من له مثل أولياتي ومجدي

أنا أمُّ التشريعِ قد أخذ الرّو مانُ عنّي الأصولَ في كلِّ حدِ
ورصدتُ النجومَ منذ أضاءتْ في سماءِ الدُّجى فأحكمتُ رَصْدي
وشدا (بنتئور) فوق ربوعي قبل عهد اليونان أو عهد (نجدِ)

هكذا يتغنى شاعر فحل مثل حافظ إبراهيم بذلك المعبود الجديد الذي حل محل رابطة الدين والعقيدة!!

وهذا أحمد لطفي السيد المتوفى سنة 1963 الذي يلقبه أتباعه بأستاذ الجيل يوجه رسالة إلى فتيان مصر بشأن الوطنية: "يابني عليك مصرك لا ينفعك إلا مجدها، ولا يذلك إلا ضعفها، ولو قلّبت تاريخها حديثاً على قديم، لما وجدتها في الحقيقة مدينة إلى أحد من الناس، تدعوك الذمة إلى أداء الدين عنها. إنها كانت مطمع الطامعين، يأخذون منافعها بقوة السلاح، أو بقوة العقل، فما أنت مسئول إلا عنها، ولو أنفقت من عواطفك ومن نتائج جهادك العقلي والبدني مثقال ذرة على غيرها، في حين أنها أحوج ماتكون إلى ما أنفقت، لو سمتك بالعقوق. وكما أنك بين أقرانك لك شخصية تجب عليك رعايتها، فإن لوطنك بين الأوطان شخصية أيضاً رعايتها واجبة على أهله، وأن فناءك في إرادة الغير، واهتمامك بأن تكون في رق اختياري، شر من الرق الإضطراري، كذلك اهتمامك بتمجيد غير وطنك، والسعي في انجاحه دون بلادك نقص في وطنيتك، واحتقار لنفسك وأهلك وبلادك، وما الأمم الطبيعية إلا آكل أو مأكول. ولو جعلت وطنك شيوعاً بين من لا تتفق منفعته مع منفعتك دون أن تحدده بحدود بلادك، لكنت عديم الوطن، وحاشاك أن تجهل حقوق وطنط عليك".

وكان أحمد عرابي المتوفى 1911 صاحب الثورة العرابية الشهيرة ضد الإنجليز يستعمل لفظ المصريين والأمة المصرية بمعناه الحديث ويعتبر من ليسوا من أهل البلاد سواء كانوا من الأرمن والأتراك، وسواء أكانوا من المسلمين أو غير المسلمين، أجانب لايحق لهم أن يحكموها وهو أمر جديد - على حد قول الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى - لم يوجد له أثر في التفكير المصري منذ أن احتضنته الموجة المسيحية، وقد قال في هذا في جريدة الأستاذ التي أنشأها عبد الله النديم المتوفى 1896 في بداية حكم الخديو عباس الثاني تحت عنوان

(المسـلمون والأقبـاط) مـايلي: "هم أبنـاء مصر الـذين ينسـبون إليها وتنسب إليهم، لايعرفـون غـير بلـدهمم ولايرحلون لغيرها إلا زيارة... ورغم تقلبات الدولية إخـوان الوطنية يتزاورون تزاور أهل البيت ويشـارك الجـار جـاره في أفراحه وأتراحه علماً منهم أن البلاد تطـالبهم بصـرف حيـاتهم في إحيائها بالمحافظة على وحـدة الإجتمـاع الوطـني الـذي يشـمله اسم مصـري من غـير النظر إلى الإختلاف الديني " (الأستاذ ج1 ص749 وما بعدها).

ويـروي أحمد عـرابي باشا عن نفسه قـائلاً: "إنـني فلاح مصـري، وقد اجتهـدت قـدر طـاقتي أن أحقق الإصـلاح لوطـني الـذي أنا من أبنائه ومحبيـه. لقد كنت أجتهد في حفظ اسـتقلال بلادي مع نيل الحرية والعـدل والمسـاواة للمسـاكين الـذين أنا خـادم لهم. فلسـوء البخت لم يتيسر لي الغـرض المقصـود. وإنـني مكتف بشـرفي الشخصي الـذي سـوف يلازمـني مـاحييت ويبقى بعـدي إذا مت. وسوف يرضيني دائماً أن أنادى بـ (أحمد عرابي المصري) فقط، وبغيرألقـاب. لقد ولـدت في بلاد الفراعنة وسـتظل أهراماتهم قبري. إن الأمة المصـري بأسـرها كـانت معي، وصحبة لي، كما أني محب لها أبداً، فآمل أنها لاتنساني".

وفي مقالة بعنوان (دروس الوطنية التي أخذها مصـطفى كامل من النـديم) يـبين د.عبد المنعم إبـراهيم الجميعي أوجه الإختلاف بين مصـطفى كامل وأسـتاذه عبدالله النديم: "رغم أن مصطفى كامل كان تلميذ عبدالله النديم - الذي نـادى بـأن تكـون مصر للمصـريين وفضل الوطنية المصرية عما عداها - فقد دعا إلى دعم تبعية مصر لتركيا وضـرورة التمسك بالرابطة العثمانية بقولـه: (يجب على المصـريين أن يتمسـكوا أشد التمسك بالرابطة الأكيـدة الـتي تـربطهم بالدولة العثمانيـة) بل وصل به الأمر أن طلب من السلطان ارسـال جيوشه لأغـراج الإنجلـيز منها واحتلالها باعتبارها ولاية عثمانيـة. كما أعلن في خطبة له بباريس بمناسبة عيد جلوس السلطان في 31 من مارس أغسـطس 1895 (أن الراية العثمانية هي الراية الوحيـدة التي يجب أن نجتمع حولها). لقد كان الفـرق شاسـعاً بين سياسة النـديم وسياسة مصـطفى كامل تجـاه الدولة العثمانيـة، فالنـديم فضّـل الـولاء للوطنية عن الإرتبـاط بجامعة الدين وعندما تعارضت مصـلحة مصر مع مصـلحة الدولة العثمانية وقف النديم بجانب مصر، وهـاجم سياسة الدولة العثمانية تجاه القضية المصـرية، ورفض أن تتنـازل مصر عن الإمتيـازات الـتي نالتها بالسـتقلالها في شـئونها

الداخليـة، بينما نجد مصـطفى كامل يطلب من السـلطان ارســال جيــوش عثمانية لاحتلال مصر وإخــراج الإنجلــيز منها".
هكـــذا وضع الطهطـــاوي النطفة الأولى لتخـــريب الهوية الإسلامية ولتمزيق رابط الدين والعقيـدة، فصـار المسـلم المصري يقاتل المسـلم السـوداني أو الليـبي أو العـراقي بحجة الدفاع عن الولاء الجديد: الوطن!!

صفوة القول :

لقد كان للشيخ الأزهري رفاعة رافع الطهطــاوي أوقل إن شئت (رفاعة بك) السبق والريـادة في إدخـال العلمنة بما تعنيه هذه الكلمة من تهميش الإسلام، وإقصـائه عن إدارة شئون المسلمين.

لقد اســـتخدم الطهطـــــاوي منهج التلفيق بغية اضـــفاء الشـرعية الإسـلامية على أفكـاره المسـتوردة من فرنسا حيث كــان يشتشــهد بالآيــات القرآنية والأحــاديث النبوية وشــواهد من الشـعر العـربي القـديم والإسـتدلال ببعض المذاهب الفكرية.

لكنه قد أبعد النجعة باســـتدلالاته الـــتي كـــانت في غــــير مواضـعها!! وفي نهاية هـذا التطـواف نخلص إلى الأفكـار الأساسية التي نادى بها الطهطاوي:

أولاً: التأكيد على فكـــــرة أن الدولة الغربية اللادينية هي الأنموذج الأمثل لكي ينهض العالم الإسلامي.

ثانيـــاً: تأكيـــده على أن الشـــريعة الإســـلامية لا تمنع العمل بقوانين وضعية!!

ثانيـاً: إحيـاء النعـرات الفرعونية والتأكيد على فكـرة القومية المصرية.

ثالثـــاً: التأكيد على ولاء الـــوطن قبل ولاء الــــدين والعقيدة.

رابعـاً: تأكيـده على أن سـفور المـرأة لا يـدل على انحطاط المجتمع.

خامساً: التأكيد على أن اختلاط الرجال بالنساء على الطريقة الغربية لا ينافي الدين والأخلاق.

سادسـاً: تأكيـده على أن فنـون الـرقص والغنـاء والتمثيل عمل ممدوح من قبيل الأعمال الرياضية.

سـابعاً: تثـبيت فكـرة أن الكتابة بالعامية المصـرية أسرع وصولاً للجماهير.

أرجو أن أكـون قد وفقت في تقـديم صـورة واضـحة عن شخصـية الشـيخ رفاعة الطهطـاوي ودوره الخطـير في تخريب الهوية الإسلامية.

والله أسأل أن يحفظ الإسلام وأهله! اللهم آمين!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

هاني السباعي
لندن في 17 إبريل 2001م

مراجع

(1) الأعمـــال الكاملة لرفاعة الطهطـــاوي.... تحقيق د. محمد عمـــارة المؤسسة العربية للدراســـات والنشـــر/ بيروت/ ط1/1973.

(2) الأعمــال الكاملة للإمــام محمد عبــده.... تحقيق د. محمد عمـــارة المؤسسة العربية للدراســـات والنشـــر/ بيروت/ ط1/1973.

(3) الإعمـــال الكاملة لقاسم أمين... تحقيق د. محمد عمارة دار الشروق/ القاهرة.

(4) الإســـلام والحضـــارة الغربيـــة/ د. محمد محمد حسين/مؤسسة الرسالة/بيروت.

(5) الإتجاهـــــات الوطنية في الأدب المعاصـــــرد. محمد حسين

(5) صفوة العصر / زكي فهمي/ مكتبة مـدبولي/ القـاهرة 1995.

(6) ارشاد الفحول/ الشوكاني/دارالفكر/بيروت/1992.

(7) العواصم من القواصــم/ أبــوبكر بن العــربي/ تحقيق محب الدين الخطيب/ لجنة الشباب المسلم/ القاهرة.

(8) أصــــول الفقـــــه/ محمد أبو زهـــــرة/ دار الفكر العربي/بيروت.

(9) أصــــول الفقـــه/ عبد الكـــــريم زيــــدان/مؤسسة الرسالة/بيروت.

(10) شــهود العصــر/ مركز الأهــرام للترجمة والنشـــر/ القاهرة.

(11) أعلام وأصــحاب أقلام/ أنــور الجنــدي/ دار النهضة العربية/ مصر.

(12) رفاعة راقع الطهطـــــاوي (رائد التحــــديث الأوربي الحديث)... سـمير أبو حمـدان/ الشـركة العالمية للكتـاب/ بيروت.

(13) الإمام محمد عبـده (جدلية العقل والنهضـة)/ سـمير أبوحمدان/ الشركة العالمية للكتاب/ بيروت.

(14) الثائر الإسلامي جمال الـدين الأفغـاني/ بقلم الشـيخ محمد عبده/ دارالهلال/ القاهرة.

(15) عجائب الآثار في التراجم والأخبار/ الجبرتي/ تحقيق عبدالعزيز جمال الدين/ مكتبة مدبولي/ القاهرة 1977.

(16) كتاب تذكاري عن أستاذ الجيل (أحمد لطفي السيد) المجلس الأعلى للثقافة/ القاهرة 1986.
(17) بحـوث نـدوة: بـذكرى مـرور مائة عـام على وفـاة (عبدالله النـــديم)/ المجلس الأعلى للثقافـــة/ القـــاهرة 1997.
(18) تاريخ مصر في عهد الخديو إسـماعيل باشـا/ إليـاس الأيوبي مكتبة مدبولي/ القاهرة.
(19) تـــــــاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل تأليف جـورج يـانج/ تعـريب علي أحمد شـكري/ مكتبة مدبولي/ القاهرة 1995.
(20) تـاريخ مصر من الفتح العثمـاني (إلى قبيل الـوقت الحاضـر) تـأليف عمر الإسـكندري وسـليم حسـن/ مكتبة مدبولي/ القاهرة.
(21) المؤامرة على الإسلام/ أنور الجندي/ دار الإعتصـام/ القاهرة 1977.
(22) التعريف بالإســـلام في مواجهة العصر الحـــــديث وتحدياته/ عبد الكريم الخطيب/ دار الفكر العربي.
(23) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر/ عبد الرحمن الرافعي/ دار المعارف/ القاهرة 1994.
(24) تاريخ الفكر المصري الحديث/ د. لويس عــوض/ دار الهلال/ القاهرة 1994.
(25) الثــورة العرابيــة/ صــلاح عيســى/ دار المســتقبل العربي/ القاهرة.
(26) مذكرات الإمـام محمد عبـده/ تقـديم وتعليق طـاهر الطناحي/ دار الهلال/ القاهرة.
(27) باشوات وسوبر باشوات/ د. حسين مؤنس/ الزهراء للإعلام العربي/القاهرة/1984.
(28) الحملة الفرنسية على مصر/ هنري لــورنس/ ترجمة بشير السباعي/ دار سينا للنشر 1995. (29) كيف نكتب التاريخ./محمد قطب/ دار الوطن للنشر/ الرياض.
(30) دور العمائم في تاريخ مصر الحديث/ فتحي رضـوان الزهراء/القاهرة.
(31) اليقظة الإســـلامية في مواجهة الإســـتعمار/ أنـــور الجندي/ دار الإعتصام/ القاهرة.
(32) العـودة إلى الينـابيع/ أنـور الجنـدي/ دار الإعتصـام/ القاهرة.
(33) علماء الإجتماع وموقفهم من الإسلام/ أحمد إبراهيم خضر / المنتدى الإسلامي/ لندن.
(34) وعليكم الســلام/ محمــود عــوض/ دار المســتقبل العربي/ بيروت.

(35) المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسـيره/ د.محمد رشاد سالم/ دار الثقافة/ الدار البيضاء/ 1986.

المؤلف في سطور

- الإسم بالكامل: هاني السيد السباعي يوسف
- من مواليد/ القناطر الخيرية بجمهورية مصر العربية.
- محام لدى محاكم أمن الدولة العليا بمصر.
- عضو هيئة الدفاع في القضايا السياسية.
- ساهم في تأسيس رابطة المحامين الإسلاميين.
- عضو لجنة الشريعة الإسلامية بنقابة المحامين
- مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية.
- رئيس مجلس إدارة الجمعية الشـــرعية بالقنـــاطر الخيرية بمصرسابقاً.
- رئيس تحرير مجلـتي الفرقـان والبنيـان المرصـوص سابقاً.
- المستشــار التــاريخي لمركز الدراســات الإســلامية بإستراليا.
- كـــاتب متخصص في الســـيرة النبوية والتـــاريخ الإسلامي.
- تمهيد لنيل درجة الدكتوراة في الفقه المقارن.
- كــاتب في مجلة المحامــاة الــتي تصــدرها رابطة المحامين الإسلاميين.
- كاتب في مجلة نداء الإسلام باستراليا.
- كاتب في مجلة المنهاج بلندن.
- اعتقل في قضية تنظيم الجهاد عام 1981م.
- اعتقل عـدة مـرات وظل يعمل في مهنة المحامـاة والنشـاط الـدعوي حـتى هـرب من مصر ويقيم الآن في بريطانيا.